هبه البدهلي

الضيق

رواية



الضيق





هبه الدهلي/ من مواليد القاهرة عام 1976. تعود أصولها إلى قرية الأكراد بمحافظة أسيوط. لكنها عاشت فترة من طفولتها وشبابها بالسودان، تخرجت في كلية الحقوق جامعة القاهرة، وفازت بمسابقة في القصة القصيرة بالجامعة؛ نشرت مجموعة قصصية باسم "للموت معان أخرى". كما نشرت لها قصصا ومقالات في صحف ومجلات مختلفة، و"الضيق" هي روايتها الأولى.

رواية

الضيق

هبه الدهلي

الطبعة الأولى سبتمبر 2015

رقم الإيداع: 2015/17843

الترقيم الدولي: 978-977-5154-52-1

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

الضيق

المحتويات

إهــداء

إلى قلوب أبنائي البريئة

إلى زوجي ورفيقي د/محمد

إلى السودان بيتا سكنت به، ومدرسة

تعلمت بها، ورفقاء كبرت معهم

هبه البدهلي

الفصل الاول

تركتْ أمِّي المشط من يدها فأمسكتُ به خلسةً حينما اتَّجَهتْ للمطبخ، وجلستُ خلفَ أختي منال التي لم تكن قد تحركت من مكانها بعد تمشيط أمي لشعرها القصير، فقد كانت ممسكة بعروستها الصغيرة تتحدث إليها ثم تحتضنها مربتة على ظهرها في حنان، ثم تعود لتهندم ملابسها التي هي من صنع يديها بمعاونتي أنا الأخت الأكبر منها.

كانت قد تمددت بداخلي عشر سنوات جعلتني أطول من أختي قامةً، أما هي فكانت لا تزال تنكمش بداخلها سنواتها السبع، فقد كنتُ بالصف الخامس الابتدائي، وكانت هي بالثاني.

أخذت أغير لها تسريحة شعرها، التي كانت قد استقرت عليها أمي، بل وترتاح إليها دائمًا، فكنت أتصوَّرها أجمل في غير هذه التسريحة.

لم تعترض منال واستمرَّت في لعبها، فقد تعودت مني ذلك.

وبعد عدة تجارب لتسريحات مختلفة رضيتُ أخيرًا عن إحداها، أخبرتها أنها هكذا تبدو أجمل، فذهبت لترى نفسها

في مرآة التسريحة، وهي المرآة الوحيدة في بيتنا، أو نعتبرها الوحيدة لأننا نستخدمها نحن الخمسة، دون المرآة الأخرى التي لا يمكننا استخدامها لارتفاعها بالنسبة لنا، إلا أبي فيستخدمها فقط أثناء حلاقة ذقنه، وتوجد مرآتنا الأخرى أعلى حوض غسيل الوجه الذي يوجد أمام الحمام، نظرًا لضيقه.

وقفت أنا الأخرى إلى جوارها أعيد تمشيط شعري الذي لم يكن قد جفَّ بعد، فقد حممتنا أمي استعدادًا لأسبوعٍ دراسيٍّ جديدٍ أولُه الغد.

رائحة البطاطس وصوت فرقعة الزيت مع شعوري بشيء من البرد جعلني أشعر بالجوع، فكان عليَّ أن أتغلب على هذا الشعور، فجلست ممسكة بعروستي الصغيرة وجلست أختي معي كي نبدأ في تمثيل مسلسل من وحي خيالنا لا نقوم بتحضيره مسبقًا بل تَحضُر إلينا مشاهده وحواراته كلما جلسنا للَّعب.

أنهينا لعبنا سريعًا نظرًا لازدياد شعورنا بالجوع، ولم تكن أمي قد انتهت بعد من تحضير العشاء، وقد تعودنا ألا نتعجلها في ذلك، حيث إنها تكون غالبًا في كامل عصبيتها كلما كانت بالمطبخ؛ نظرًا لضيقة الذي لا تتقبله أبدًا حتى مع مرور كل ما سبق من سنوات، فأمي هي (ناهد) التي عاشت قبل زواجها في بيت أسرتها الكبير جدًّا في الصعيد، ذي الحديقة الواسعة والممتلئة بالنخيل وتكعيبة العنب الكبيرة، فهي دائمة التعالي على هذا المسكن، ودائمة التذكير لأبي أنها قد تنازلت باستمرارها في السكن في بيتنا هذا، وأن عليه أن يغيره لها حيث إنها لا

تحتمل العيش به.

وتدعو لوالدها بالسماح لأنه تجاوز عن ذلك لعقيدته أنه "يشتري راجل" وبطل من أبطال أكتوبر، وهو أيضًا ذو أصول لا تقل عن أصولهم كما كان يقول لها قبل وفاته، وأنه أيضًا حاصل على مؤهل عال وموظف بوزارة المالية، فوالدي (علي رسلان) ذلك الرجل المحترم الشريف الذي كثيرًا ما قاوم إغراءات مادية من خلال وظيفته، فقد كان يرفضها جميعًا تمسكًا بالأخلاق الحميدة، وبُعدًا عما حرم الله، فهو مَن تربي في المعاهد الأزهرية ويعرف الحرام من الحلال، ذلك ما كان يقوله حينما كان يحاول أحد الأصدقاء إقناعه وتحليل ذلك له لضيق ظروفه، خاصة بالسنوات التي عَمِل بها كمفتش مالي.

ولكني قد تجرأت الليلة وطلبت من أمي أن تسرع في تحضير العشاء ـ فهي اليوم مختلفة تتسم بهدوء نفسي لم ألحظة عليها من قبل، وذلك حينما ازداد تأخرها حيث كانت مندمجة في حديث مختلف مع أبي أسمع فيه كلمات جديدة على أحاديثهما المعتادة، ولم أرهق ذهني محاولة ترجمتها إلى حديث مفهوم بالنسبة لي حيث إنها هي التي كانت قد تخللت مسامعي وفرضت حالها على حالي: السودان، السفر، مدارس نظيفة، بيت واسع وكبير، كلها أوحتْ لي بأن هناك شيئًا جديدًا طرأ على حياتنا لكني لم أعلمه بعد.

كانت الكلمات تروح وتجيء ما بين المطبخ والصالة، فقد كان أبي جالسًا على الكنبة الوحيدة بصالة شقتنا متكئًا بكوعه على المسند القطني، ممسكًا بكوب من الشاي الذي صنعته له

أمي أثناء تحضيرها العشاء دون اعتراض هذه الليلة.

الصالة التي نلعب بها ويجلس بها أبي لم تكن تتسع لأكثر من هذه الكنبة بأحد أركانها، وبالركن المقابل الشيفونيرة التي نضع فوقها التليفزيون، وقد كان يبادل أمي الحديث أثناء تواجدها بالمطبخ حيث لا تبعد الصالة عن المطبخ سوى خطوات معدودة في ممر يسمى طرقة، ويوجد بالطرقة حوض الحمام أو حوض الوش كما كانت أمي تطلق عليه؛ ذلك لأنه خارج الحمام أساسًا، أما الحمام فكان يقابل حوض الوش وكانت مساحته لا تتعدى أقدامًا قليلة، فهو عبارة عن مكعب صغير بداخله فتحة صغيرة بالأرض ولكنها تبتلع أي شي يسقط بداخلها، ولا يحتمل الحمام شيئًا غير ذلك، وأما الغرف فقد كانت ثلاثة أكبرها لأبي وأمي معًا، وبالكاد تحمل السرير والدولاب فالشيفونيرة وضعت بالصالة لتكون مكانًا للتليفزيون من الأعلى ودولابًا لملابسي وإخوتي من الداخل، أما من الأسفل فقد كنا نخبئ تحتها أحذيتنا.

والتسريحة قد وضعت في غرفتي أنا ومنال في مقابل سرير ننام عليه نحن الاثنتان ونذاكر عليه، ونلعب أيضًا.

وللحجرة الثالثة تميز بشقتنا، حيث إنها كانت تحتوي على الصالون الذي كنا نستقبل به ضيوفنا الغرباء قليلي الزيارة، فقط للحفاظ عليه قدر المستطاع، ولا يكسر هذه القاعدة سوى ضيوف الصعيد من أقاربنا، فكانت أمي تسمح لهم بالنوم بغرفة الصالون على مضض، حيث لا بديل لذلك رغم توالي زياراتهم إما للعلاج أو لزيارة أولياء الله الصالحين خاصة في الموالد كمولد الحسين الذي لا يفوّته عمي الأكبر أبدًا، أو مولد السيدة

زينب الذي لا يمكن أن ينساه ابن عمتي وأبناؤه، أو يأتي الشباب منهم للتنزه، أو لقضاء إجازة الجيش عندنا بدلًا من السفر إلى الصعيد. إذن فالقاعدة دائمة الانكسار، ذلك ما كان يزيد شعور أمي بالاختناق في هذا البيت، رغم أني لم أشعر مطلقا أن بيتنا ضيق كما كانت تشعر هي، فهو يشبه بيوت الجيران في ذات المبنى ذي الطوابق الثلاثة، وأحيانًا أشعر أن بيتنا أكبر من بيوت أخرى لأصدقاء لأسرتنا كنا نزورهم من حين لآخر.

أتمت أمي تحضير العشاء فرفعت (الطبلية) بإحدى يديها ساحبةً إياها من تحت حوض المطبخ، وباليد الأخرى كانت تحمل طبق البطاطس، فوضعتها في منتصف الصالة ومن فوقها طبق البطاطس الساخنة الذي أنا في انتظاره، فجلست مسرعةً ثم عادت هي فأحضرت الأطباق الباقية على مرات من المطبخ ووضعتها بجانب طبق البطاطس.

ثم فتحت بعد ذلك (شراعة الباب) لتبدأ نداءها بصوت مرتفع:

يا واد يا نادر تعالي عشان تتعشى.

لم نسمع منه ردًا على ندائها، لكنه بسرعة قد أتى، وفي لحظات كان جالسًا بيننا أمام الطبلية فالتففنا حولها بادئين الطعام الذي كنت قد بدأته أنا أولًا.

نادر أخي الأكبر، يكبرني بعام ونصف، وبعام دراسي واحد فقط، ولكني دائما ما أشعر بأنه يكبرني بسنوات كثيرة، فهو ذكي ولماح يعرف الكثير من المعلومات التي غالبًا لا تهمني معرفتها، فهو يهتم بالمعرفة فقط من أجل المعرفة، وأي جريدة

تقع تحت عينية صدفة يبدأ بالبحث فيها، وأي معلومة يسمعها في الراديو والتليفزيون يختزنها بعقله، أما أنا فلا يمكنني فعل ذلك أو لا أحب ذلك، لا أدري أو لا أتجرأ على فعل ذلك، فهو للكبار فقط، فدائمًا ما أراده كبيرًا، أكبر مني.

سأله أبي باسمًا:

- تعرف إيه عن السودان يا نادر؟

- السودان تحد مصر جنوبًا خدناها السنة اللي فاتت في المواد الاجتماعية.

ثم نظر إلي، قلت:

- أيوه بناخدها في المواد الاجتماعية.

ابتسم أبي سعيدًا بما علمناه فخورًا بنا قائلًا:

- إحنا قدامنا فرصة نعيش في السودان، إيه رأيكم؟

فرحنا أنا وإخوتي معبرين بـ هيييه، هيييه، هيييه.

لم نفكر في أي شيء، فقط فرحنا.. ابتسم أبي راضيًا وبدا على وجه أمي الرضا هي الأخرى.

سألت منال ببراءة:

- إحنا هنروح هناك بالعربية؟

فردَّ عليها أبي باسمًا:

- هنسافر بالطيارة يا منال.

سعدنا ثلاثتنا مكررين:

- هييه هييه هييه، هنركب الطيارة.. هنركب الطيارة!

وحينما أتممنا طعامنا وذهبنا للنوم لم أشعر بالنعاس سريعًا، فقد ذهبت بخيالي إلى عالم جديد.. عالم به طائرة كنت أراها من بعيد ولم أكن أتخيل يومًا أن أكون من ركابها، سنصعد إلى السماء ونراها عن قرب.. نرى الشمس إن كان سفرنا نهارًا، ونرى القمر والنجوم إن كان سفرنا ليلًا.

عالم به بيتنا الكبير الذي سنسكنه كما أخبرنا أبي.. نمت وأنا أتخيل وأتصور، ثم بتُّ أحلم حتى استيقظت على صوت أمي.

- قومي يا هالة عشان متتأخريش على مدرستك.

قمت من سريري مبتسمة أتخيل مدرستي الجديدة ومعلميَّ الجدد، ولكني حينما أصبحت داخل فصلي أستمع إلى درس اللغة العربية من مدرستي (أبلة عصمت) انقبض قلبي، فكيف لي أن أترك أبلة عصمت مدرستي التي أحبها وتحبني، فأنا لا أتخيل يومي بدون أن أراها.

حتى يوم الجمعة فأنا لا أحبه، لأنه يحول بيني وبين لقائها.. إنها تعاملنا جميعًا في الفصل بلطف، فلا تقسو أبدًا على أي منا، فأنا أساسًا أذاكر دروس اللغة العربية كي تكون راضية عني.. هذا فقط ما أحزنني.

نغزتني سامية زميلتي وصديقتي التي تجلس بجواري ثم قسمت لي ساندويتشها لأخرج أنا أيضًا ساندويتشي وأقسمه ثم

أعطيها نصفه كما تعودنا ما بين الحصتين الأولى والثانية، حيث إننا لا نحب تناول الإفطار في البيت , ففعلت وأكلنا في عجالة قبل دخول مدرس الحساب شديد القسوة.

لم أنتبه للدرس، فقد كان هناك شيء ما يعذبني، فلم أعْتَدْ أبدًا إخفاء شيء عن سامية غير أن أبي قد أكد علينا جميعًا إخفاء موضوع السفر عن الآخرين قائلًا:

- عشان ربنا يسهلها والموضوع ميتعقدش.

سامحيني يا سامية، رغمًا عني أخفيت هذا السر عنكِ، وأنا التي لم أُخْفِ عنك شيئًا من قبل، ولكن سيأتي يوم أبوح به لك، وسأودعك وداعًا حارًا.

حبيبتي، كيف سأعوضك بصديقة أخرى؟! كان ذلك ما بداخلي.

الفصل الثاني

قد مضى شهران لم يَخْلُ خلالهما يومٌ من الحديث عن السودان والاستعداد الفعلي للسفر إليه، فقد كان أبي خلالهما دائم السؤال عن أحوال هذا البلد، وعن أهله، وعن المدارس والعمل هناك، وعمَّا سنحتاجه.

وبناءً على ما قد جمع من معلومات، فقد بدأنا بالذهاب إلى الأستوديو لالتقاط صور جديدة وضعت بكتيب صغير يسمَّى جواز السفر، ثم شراء ملابس جديدة نحن في حاجة إليها أو أنها ما تناسب عالمنا الجديد، ثم شراء الأواني الجديدة وملاءات الأسرَّة والكوفرتات والبشاكير، وحتى بعض الأطعمة المعلبة وغيرها مما لم أهتم بمعرفته.

ثم أخيرًا جاء قرار أبي بإفشاء السر الذي أصرَّ على إخفائه طيلة الشهرين السابقين، وذلك بعد ما جاءنا اليوم بتذاكر السفر.

فعلًا شعرت في هذه اللحظة أن كل ما هو آتٍ جديد بدايةً من لحظة رؤيتي لتذاكر السفر بيد أبي ونهاية بما لا أعرفه.

الجيران، أم عايدة صاحبة العقار، والتي تسكن في أعلى

طابق في العقار، وأم حسين جارتنا في نفس الدور، وأم حسن، وأم محمد جيراننا بالدور الأرضي كلهن سألنَ أمي من قبل عن كثرة المشتريات في هذه الفترة الزمنية التي مرت، ودائمًا ما كانت أمي تتهرب بلباقة من الإجابة على هذه الأسئلة، أو تجيب بأنها تشتري ما تجد أننا في حاجة إليه، وأن هذا عادي، أو أن بعض الأشياء خُفِضت أثمانها فكان شراؤها وتخزينها فرصة لا تعوض، وكانت ترى في عيونهنَّ عدم الاقتناع واتهامها بإخفاء شيءٍ ما، إلا أنها كانت تتجاهل ذلك وهى تعلم علمهنّ قدر راتب أبي، الذي لا يحتمل كل هذه المشتريات دون حاجة ضرورية، خاصة وأن كلًا منهن على قدرٍ جيد من الذكاء رغم عدم تعلمهن، برغم أن أولاهن من الأقصر وثانيتهنّ من العريش وثالثتهنّ من المنيا ورابعتهنّ من المنوفية، ولكنهن اجتمعن منذ سنوات طويلة في هذا المنزل فاكتسبت كل واحدة من خبرات الأخرى وعلمها البسيط حينما نمت بينهن صداقة وترابط، كما اكتسبنَ جميعًا الكثير من هذا الحي الشعبي.

اليوم فقط ستذهب أمي مساءً إلي بيت أم عايدة وستخبرها بما أخفت طيلة الفترة السابقة، وبأن إخفاءها لذلك كان رغمًا عنها؛ ذلك لأن أبي هو من أمر بذلك، لأن الأمر لم يكن مؤكدًا بعد برغم استعدادنا للسفر.

كانت أمي تعلم أنها بمجرد خروجها من شقة أم عايدة سيبدأ الخبر في الانتشار في جميع شقق المنزل، فهذه سمة من سمات الأحياء الشعبية، فبيوت الجيران في ذات العقار تعد بيتًا واحدًا، وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يعطي إحساسًا لأبي بالاطمئنان، بل هو الشيء الوحيد الذي كان يريح أمي في

هذا السكن، فالجيران هنا متعاونون بشكل كبير، فحينما كانت تمرض أمي كانت جاراتنا تقمنَ برعايتها والاعتناء بها حتى تتعافى، بل وبتنظيف الشقة وإعداد الطعام والاهتمام بنا، وحتى غسل الغسيل، فحينما كان يعود أبي من عمله كان لا يشعر بأن هناك شيئًا ينقصه أو ينقصنا، وهذا ما يجري مع أي جارة أخرى إذا مرضت أيضًا، أمَّا في حالة استقبال الضيوف المفاجئين فكانت تأتي المساعدات من خلف أي باب في البيت.

استأذنت أبي في إعلام سامية بسفرنا فوافق، فارتحت لذلك.

ذهبت للمدرسة في اليوم التالي وكلي رغبة في إخبار صديقتي بالسر الذي أخفيته عنها طيلة هذه المدة.. بكت صديقتي وبكيت معها، خاصة حين علمت أنه اليوم الأخير لي بالمدرسة، وعلم الجميع بالفصل في ثوانٍ قليلة فالتفوا حولنا يُربتون على أكتافنا في شفقة من فرط ما يبكينا، وحينما دخل المعلم حبسنا مشاعرنا بدواخلنا واستمعنا لدرسنا، ولكني لم أسمع بانتباه، فأنا أشعر بشعور مختلف عن شعوري في تلك الأيام السابقات، أشعر بأنني ضيف.. اليوم فقط لا أخاف غضب معلمي، لن أنتبه إلى الدرس خشية غضبه، وإذا فعل فسأخبره بأنه يومي الأخير هنا فلن آتي غدًا، وسأسافر إلي بلد آخر ومدرسة أخرى ومعلم آخر.

دُقَّ باب الفصل فكانت المفاجأة حين فُتحَ أنه أبي، وإلي جواره ناظر المدرسة الأستاذ حمدي الناظر الطيب الذي لا نخافه أبدًا.. وقف الجميع بمجرد دخولهما الفصل ووقفت أيضًا، ولكن بشعور آخر اختلفت به عن بقية زملائي، فأنا سعيدة بحضور

أبي وبجانبه الأستاذ حمدي، فقد حضرا من أجلي.

أشار إليَّ الأستاذ حمدي بأن (تعالي) فجربت وأمسكت بيد أبي، الذي أخذ يتحدث إلى المدرس مخبرًا إياه أننا سنسافر خلال أيام قليلة وأنني لن أحضر ثانية.

ولأول مرة يصافحني مدرسي مبتسمًا في وجهي ثم قبَّلني بعد ذلك الأستاذ حمدي قائلًا:

- هتوحشينا، اوعي تنسي مدرستك.

هل سيذكرني الأستاذ حمدي بعد ذلك؟!

مشيت مع أبي بعد أن علّقتُ حقيبتي على ظهري ناظرةً إلي صديقتي, انفجرت في البكاء بصوت مكتوم خشية اعتراض المعلم على ذلك، ولم أستطع أن أعود لمصافحتها خشية اعتراضه أيضًا، ولكنها لم تستطع الاستمرار في ذلك فقد انهمرت دموعها وعلا صوتها رغم أي شيء.

سحبني أبي من يدي وأنا في عينيّ سامية الباكية.

وبمجرد خروجي من الفصل اختفيت من عينها واختفت من عيني.. وبمروري بالطرقات جاءني صوت أبلة عصمت تشرح درسًا في أحد الفصول، سحبت يدي من يد أبي ودققت باب الفصل فجريت إليها محتضنة إياها وأخبرتها بأننا سنسافر إلى السودان ولا أعرف متى سنعود.

فقبَّلتني في جبيني قائلة:

- بالسلامة يا حبيبتي.. هتوحشيني.. اهتمي بمذاكرتك.

واوعي تقصري.. أنا عايزاكي لما تكبري تبقي مدرسة عربي وتيجي تدرسي هنا في مدرستك.

(حاضر) قلتها ثم خرجت مرتاحةً من الفصل لسلامي عليها، فوجدت أبي وإخوتي في انتظاري في منتصف حوش المدرسة الفارغ من التلاميذ إلا القليل، نزلت درجات السلَّم مسرعة وأمسكت بأيدي إخوتي فرحين بالجديد في حياتنا، مسرعين في طريقنا للخروج من المدرسة.

الفصل الثالث

أغلقنا باب شقتنا.. يلتف حولنا جميع الجيران، لا أحد في بيته رغم تأخر الوقت، فالساعة الثانية صباحًا، والجو شديد البرودة الليلة. يحتضن الرجال أبي وتحتضن النساء أمي مودعين، كما حصلنا نحن على قدر كبير من القبلات والأحضان والوصايا بشأن المذاكرة.

ولكنا لا نجد أصدقاءنا من الجيران، فقد ناموا منذ ساعات بعد فترة لعب مكثفة معنا، أمام أبواب الشقق، فتعبوا بعدها وذهبوا للنوم رغم محاولاتهم في البقاء أيقاظًا إلا أنهم لم يستطيعوا ذلك.

أما نحن فقد استطعنا أن نصمد برغم التعب من اللعب، ففرحتنا الغامرة بجانب مساعدتنا لأمي وأبي قدر استطاعتنا، ثم انتظار فرصة لحشر أشياء تخصنا بالحقائق دون أن تراها أمي... كل ذلك كان مانعًا لنا من الراحة والنوم.

وضعت أمي مفاتيح شقتنا في يد أكبر جاراتنا سنًا وصاحبة العقار (أم عايدة) دون حتى أن توصيها على بيتنا، فهي بالنسبة لأمي وللجميع أهل للثقة.

ذهبنا تاركين وراءنا بيتنا الصغير وشارعنا الضيق ومنطقتنا السكنية التي يطلق عليها شعبية، مررنا بمناطق وشوارع وبيوت لم أرها من قبل.

كان مرورنا سريعًا، فكدنا نطير مخترقين هذا الهدوء المروري، بل كدنا نطير أنا وإخوتي كي نري الطائرة عن قرب.

(وصلنا) قالها سائق التاكسي. أسرعنا بالنزول من التاكسي فصُدِمنا:

- فين الطيارة؟

سؤال سألناه ثلاثتنا، فلم ينتبه أحدٌ لسؤالنا، فقد كان الجميع مشغولًا بإنزال الحقائب من السيارة.

ولكن هناك أصوات لطائرات فعلًا، فأخذت أتلفت من حولي متسائلة:

فين؟.. فين الطيارة؟ أنا مش شايفاها.

بعد دقائق قليلة وجدتُني في عالمٍ جديد.. عالم متسع جدًّا.. مختلف جدًّا.

بهرني المكان بكامله بكل ما يحوي.. الناس بملامحهم المختلفة. بملابسهم العادية وغير العادية بالنسبة لي، حتى ألوان بشرتهم فهي متنوعة أيضًا، وكأنني أري جميع ألوان البشر في هذا المكان.. هناك رجال للشرطة يرتدون أزياء متماثلة يتحدثون بلباقة وسرعة.. دائمي العمل.

أرى وجوههم جميلة.. المكان كامله جميل نظيف جدًّا ولامع

جدًا برغم أقدام البشر الكثيرين.

وُضعت حقائبنا في أماكن جعلتنا نرى ما بداخلها على شاشة شاهدها شخص ممن يرتدون هذا الزي الموحد، ما هذا الذي يحدث؟ كيف يرى ما بداخل الحقيبة وهي مغلقة؟ كيف اتضح ما أخفينا؟ أهذا هو السحر؟!

- إزاي يا بابا؟ إزاي يا ماما؟

لا أحد يسمعني فكلاهما مشغول لا أسمع منهما سوى:

- اسكتي، امشي بسرعة، تعالي هنا خليكي جنبي، متبعديش.

حتى نادر يرى ذلك للمرة الأولي في حياته فيُدهش كما دهشت أنا.

مررنا بمراحل كثيرة أكثرها تأثيرًا في نفسي هي تفتيش حقائبنا، فهي حقائبنا نحن، فلماذا يفعلون ذلك؟ غير أنها تمتلئ معظمها بالأطعمة المعلبة فسنكون في حاجة إليها كما علم أبي، حيث إن الخرطوم بلد غير متوفر به الكثير مما نحتاج وما قد اعتدنا استخدامه في أطعمتنا.

الناس من حولي يتحدثون بل لا يكفُّون عن الحديث، ولا أسمع أحدًا بوضوح، فكلهم يتحدثون في ذات اللحظات، وهناك من يتحدثون من الأعلى لا أراهم، ولكنهم يتحدثون، يتحدثون بعد رنات وأجراس أو موسيقى لا أدري ما اسمها، فيعلنون عن رحلات، عن مواعيد، عن أسماء أشخاص.

كان ذلك كله مختلطًا بأصوات البشر المتواجدين، ولكني

لاحظت أهمية ذلك، فبعض الناس ممن يتحدثون يصمتون في هذه اللحظات مشيرًا بعضهم بأصبعه إلى الأعلى، وبعضهم يرفع رأسه وكأنه يقترب بأذنيه من هذا الصوت، أما البعض فلا يهتم ولا ينتبه لذلك، ثم بعد ذلك ترجع حالة الضجيج إلى وضعها الأول.

وصلنا إلي مرحلة الانتظار فجلسنا أخيرًا على الكراسي المتراصة، انتظرنا وانتظرنا ثم انتظرنا، لم أدْرِ أنني قد نمت إلا حينما وجدت أمي توقفني قائلة:

- يلا عشان تركبي الطيارة.

فركت عيني بشدة ثم فتحتها فلم أجد أمامي طائرة، وقبل أن أتساءل كانت أمي قد سحبتني من يدي وأمسك أخي بيدي الأخرى خارجين من ذلك الباب الزجاجي، فوجدت هناك طائرات بعيدة كبيرة جدًا، كبيرة أكثر مما تخيلت.. أصواتها مخيفة بل مرعبة، لكننا لم نركب أيًا منها، فقد ركبنا ذلك الأتوبيس الذي وجدناه أمامنا بمجرد خروجنا من الباب الزجاجي على تلك الساحة الواسعة، والذي يظل به الناس وقوفًا.

انتابني شعور بعدم السعادة، أبعد كل ذلك سنسافر بالأتوبيس؟! فسألت أمي:

- هو احنا مش هنركب الطيارة ليه؟

فلم تجبني كعادتها منذ انتقالنا إلى هذا المطار، وبالتالي لم أكرر سؤالي.

الناس من حولي كبار أشم رغمًا عني روائح العرق من

بعضهم، وروائح عطور نفاذة من البعض الآخر. تتدلى من حولي أيادٍ بعضها عاديةٌ بالنسبة لي، وبعضها أثارت انتباهي لشدة سوادها. توقف بنا الأتوبيس فنزلنا.. فوجئت بأنني أمام سلًم الطائرة، لم أرها هكذا أبدًا حينما كنت أشاهدها من شرفة منزلنا، فقد كانت بلا سلم بجانبيها.

أشعر بفرحة ممتزجة بخوف... كما أشعر ببرد غير عادي يفوق ما شعرت به حينما كنا نركب الأتوبيس، أكاد أطير من شدة الهواء.

أرتعد ممسكة بأمي متمنيةً ضم أختي إلي صدري، والتي كانت أمي قد أمسكتها باليد الأخرى، فأنا أخاف عليها من هذا الهواء، كما أريد أن أهمس إليها وأسمع منها تعقيبًا على ما نمر به من جديد.

صعدنا السلم الحديدي.. إنهم يستقبلوننا بكل ترحاب مبتسمين في وجوهنا، يساعدوننا على الجلوس في أماكننا المحددة، ابتسم لنا أبي شاعرًا براحة، فابتسمنا له شاعرين بفرحة.. جلست بجوار أختي كي أتحدث إليها وتتحدث إليَّ.

الطائرة مكان جميل، أجمل من هذا القطار الذي نركبه حينما نسافر إلى الصعيد. أخذت أتفحص الكرسي المريح الذي أجلس عليه وطاولة الطعام الملتصقة بالكرسي الذي أمامي، فحين فتحتها شعرت بانبهار كوني لم أرَ مثلها في القطار الذي ركبناه مرارًا.

علينا أن نربط الأحزمة كما قال شخص ما في مكبر صوت..

ساعدتني أمي على فعل ذلك، كما ساعدها أبي بعد أن ساعدته سيدة جميلة ترتدي زيًّا أنيقًا.

أنا لا أضع شيئًا بأذني، إلا أنني لا أسمع جيدًا، أشعر بأن هناك شيئًا ضاغطًا عليهما، فأنا لا أسمع بوضوح أصوات من حولي.

خفت كثيرًا.. هدأتني أمي مربتةً على كتفي قائلة كلمات لم أسمعها جيدًا. فلاحظت بعدها أن جميع من حولي يعاني من نفس المشكلة فاطمأن قلبي وفهمت أن ذلك شيء عادي.

وضعت يدي على فمي مخفيةً ضحكتي حينما بدأت تلك السيدة الجميلة الأنيقة في الإشارة بحركات تمثيلية تتوافق مع صوت يأتي من الأعلى ممسكة ثم تاركة أشياء مختلفة من يديها، ضحكت أختي هي الأخرى ولكن دون أن تخفي ضحكتها، وكنا قد تأقلمنا مع ضغط الطائرة.

سعد أبي بأن جاءته الجريدة، وبعدها تناولنا العصائر حسب اختياراتنا، ثم بدأنا تناول الإفطار، وبعدها أخذ أبي وأمي كوبين من الشاي.

كل شيء كان ممتعًا ومختلفًا، كل الأمور كانت غير عادية هذه الليلة, وحتى صباح اليوم من خلال زجاج الطائرة كان أيضًا غير عادي.

الفصل الرابع

مرحبًا بكم في مطار الخرطوم.. كلمات أفرحتنا أنا وإخوتي فصفقنا دون اتفاق مسبق، تركنا الطائرة خلفنا ذاهبين إلى مكان ما شاعرين بدفء شمس مختلف، ووجوه مختلفة، فكل العاملين في مختلف الأعمال يجمعهم لون البشرة الأسود، حتى إنني لا أستطيع تمييز أحدهم عن الآخر، فهم متشابهو الملامح، يتحدثون بلهجة واحدة مع اختلاف نبرات أصواتهم، لهجة لا أفهمها.

مررنا بمراحل عديدة أيضًا آخرها استلام الحقائب، لم يَحْظَ خلالها هذا المطار بإعجابي بعد أن شاهدت عيناي مطار القاهرة قبل ساعات قليلة.

كان في استقبالنا رجل يشبه هؤلاء جميعًا ولكنه يتميز بقامة طويلة جدًّا وأكتاف عريضة جدًّا، يخلو أعلى رأسه من الشعر تمامًا، يتصبب العرق على رأسه ووجهه وذراعيه، فتبدو بشرته لامعة لشده سمرته.

قام بالترحيب بنا من خلال كلمات لم أفهما أنا، وأعتقد أن الجميع أيضًا لم يفهمها، فقد طلب منه أبي تكرار كلماته أكثر

من مرة حتى تمكَّن من فهمها وشكره بعد ذلك.

ركبنا سيارة كبيرة أطلق عليها هذا الرجل (حافلة)، تحدث كثيرًا إلي أمي وأبي محاولًا هذه المرة استخدام اللهجة المصرية، مكَّنه من ذلك أن زوجته الأولى كانت مصرية، بالإضافة إلى أنه يعمل بالري المصري فيتعامل مع المصريين العاملين به كل ذلك ساعده على التحدث بلهجتنا بسهولة كما سمعت دون قصد، فأنا لم أنتبه إلى كل ما قيل، ولكني رغم ذلك أدركت أن اسمه (حمزة الطيب)، وأنه يعمل بالعلاقات العامة، وأنه أيضًا جارنا في السكن.

أما ما قيل بعد ذلك فلم يهمني قدر ما أهمني أن أشاهد الطريق الذي نمر به ذهابًا إلي بيتنا الجديد، فقد بدأ الطريق بصحراء على الجانبين، ثم امتلأ بعد مسافة جانبا الطريق بأشجار كثيفة عالية، ثم بعدها مررنا بشوارع بها مساكن معظمها بيوت متسعة كلها من طابق واحد ولها أبواب كبيرة.

رأيت خلال ذلك أُناسًا كثيرين، نساءً ترتدين ملابس تبدو كالملاءات الملونة، ورجالًا يرتدى معظمهم الجلابيب البيضاء وعمامات كبيرة جدًّا فوق رءوسهم، ويجمع الجميع صفات واحدة في عينيَّ، لون البشرة الداكن، والملامح المتشابهة جدًّا حتى إنني شعرتَ أني لن أستطيع تمييز أحدهم عن الآخر.

وقفت بنا الحافلة بشارع واسع جدًّا كمعظم الشوارع التي مررنا بها، وأمام بوابة حديديه لبيت يبدو كبيرًا جدًّا، فأشار إليه عم حمزة قائلًا إن هذا هو بيتا. لم أستطع إخفاء فرحتي ولا حتى إخوتي فأطلقنا صرخات طفولية ثم (هييه.. هييه.. هييه،

وصلنا).

فأخذنا نتبادل الأسئلة غير مصدقين ما قد رأينا.

- هو ده كله بيتنا.

- إحنا هنعيش هنا؟ معقول؟!.

- هي دي فيلا ولا بيت؟!

وبمجرد نزولنا من السيارة جرى نادر نحو البوابة الحديدية الأكبر في مقابل بوابة منزلنا، وهي بوابة مسجد كبير جدًّا يختلف تمامًا عن ذلك المسجد الذي طالما صلى به في مصر مع أبي، فله ساحة كبيرة من الداخل تتناثر بداخلها الكثير من الأشجار ذات الأوراق الكثيفة يستظل بها المصلون من شدة حرارة الشمس التي بدأنا نشعر بها. ثم تأتي بعد ذلك أبواب المسجد بعيدة.

هذا ما شرحه لي نادر بعد إطلالته السريعة.. نزلت حقائبنا أمام البيت تمامًا مثلما نزلنا.. حتى ملابسنا، أوانينا وأطعمتنا ستسعد مثلما سعدنا بهذا البيت، لا أعرف لماذا تخيلت وقتها ذلك، ولكني فقط تخيلته.

تسلَّم أبي أخيرًا مفاتيح منزلنا الجديد.

أشار عم حمزة إلى منزله الذي يجاور منزلنا عارضًا خدماته، إذا ما احتجنا فقط علينا التصفيق بجوار السور الفاصل بين حديقة منزلينا وسيسمع ويأتينا في الحال كما قال.

صافحه أبي شاكرًا إياه، ثم تركنا هو متجهًا إلي بيته ذي

البوابة المماثلة لبوابة بيتنا، والذي يبدو من الخارج أنه صورة طبق الأصل من منزلنا، مع اختلاف أنواع النباتات المتدلية من فوق السلك الشائك الذي يعلو السور الحائطي.

نغزت أمي بكوعها أبي قائلةً:

-.افتح بسرعة، الشمس مولعة!

فهي دائمًا لا تحتمل حرارة الشمس، لا أدري إن كان ذلك لأنها تتميز ببشرة شديدة البياض، أم أن ذلك أمر عادي تتميز به النساء عمومًا.

فتح أبي الباب وخَطَا أولى خطواته داخل بيتنا الجديد، حاملًا حقيبتين بيده ومن خلفه أخي حاملًا اثنتين أصغر قليلًا، ثم خلفتهما منال لا تحمل شيئًا راكضة فوق الممر الأسمنتي الذي يبدأ من عند خلف الباب الحديدي للمنزل وينتهي بسلالم (الفراندا)، ووقفت أمي رغم الشمس بجانب ما بقي من حقائب حتى يعود أبي وأخي فيحملاها.

أما أنا فقد أطلقت ناظريَّ أولًا، ففوجئت بتلك الحديقة الرائعة على جانبي الممر الأسمنتي تتداخل بها روائح الورد البلدي والهندي مع روائح الرياحين المختلفة والفل والياسمين، وهناك أيضًا أشجار مرتفعة ذات ورود بيضاء وأخرى ورودها وردية اللون, يتدلى أيضًا اللوف من فروعه المتخللة السلك الشائك فوق السور الحائطي.

لم أشم في حياتي أجمل من هذه الروائح المتداخلة حتى قبل أن تخطو قدماي داخل هذا المنزل.

عاد أبي وأخي ليحملا ما بقي من حقائب مع مساعدة من أمي وأخرى منيّ، فأنا لست صغيرةً، تقول لي أمي ذلك دائمًا.

وضعنا جميع الحقائب (بالفراندا) ثم جلسنا جميعنا على ما وجدنا بها من كراسي، نظرت نظرة أخرى إلى هذا الجمال المتمثل في حديقة منزلنا، وكان هذا المجلس لالتقاط الأنفاس، ولكني شعرت أنه للحديث عن جمال هذه الحديقة واتِّساعها وورودها وروائحها النافذة إلى دواخلنا.

تمنَّت أمي أن يكون لنا مثلها رغم أنها لنا، لم أفهم ذلك، ولكني لم أهتم بأن أسأل عما تعني.

هناك أربعة أبواب خشبية مطلة على الفراندا يختبئ وراءها البيت من الداخل، فقام أبي لفتح أحدها بأحد المفاتيح التي تسلمها من عم حمزة، بعد أن قام بعدَّة تجارب لفتح هذا الباب مستخدمًا أكثر من مفتاح.

كنا في ترقب لرؤية ما خلف الأبواب فدخلنا مسرعين، وأخذنا نتفحص المكان بدقة، فوجدنا من الغرف اثنتين يفصلهما باب داخلي بخلاف بابي الغرفتين على الفراندا، وهناك باب ثالث للغرفة التي في اليمين يفصلها عن الحمام الكبير جدًّا الذي لا يوجد به فتحة من الأرض، فلا يوجد به إلا هذا الحوض الكبير وذلك الدش البعيد جدًّا عن الحوض، وبه شباك كبير جدًّا يطل على الحديقة الخلفية للبيت، فكان هذا اكتشاف جديد بالنسبة لنا، وللحمام باب آخر مؤدٍّ إلى طرقة بها باب لحمام آخر به فقط حمام أفرنجي، ومن فوقه صندوق يتدلَّى منه سلسلة قال عنها أبي إنها (سيفون). كان هذا مبهرًا بالنسبة لي، فهذا المرحاض

عبارة عن كرسي مرتفع مفتوح من الأعلى وبداخله ماء قليل، وجلست منال فوقه لتكون أول من جرب هذا الحمام الأفرنجي، وهناك باب آخر بالطرقة عندما فتحناه اكتشفنا أنه أحد الأبواب الأربعة المطلة على الفراندا، وهناك باب آخر بالطرقة هو باب المطبخ، الذي هو أربعة أو خمسة أضعاف مطبخنا بمصر كما قالت أمي منبهرة به، وانتبهنا أن هناك بابًا رابعًا بالفراندا لم يفتح بعد، فاتجهنا إليه فكان بابًا لغرفة منفصلة، وكانت تحوي الأنتريه البسيط ذا (الشلت) القطنية، مطلةً على ذات الفراندا، ولها باب آخر يفتح على فراندا صغيرة بالحديقة الخلفية كما لإحدى الغرف أيضًا, كل هذه الغرف كانت كبيرة جدًّا.. الحمام كان كبيرًا جدًّا، الحمام الآخر أيضًا، الفراندا الأمامية كانت قدر شقتنا في مصر، الحديقة الأمامية متسعة بشكل غير عادي، والخلفية لها نفس المساحة، وهناك جانبان أيضًا للحديقة بهما أشجار عالية، فالبيت في المنتصف تدور حوله الحديقة، أكلُّ هذا البيت لنا؟! لنا وحدنا؟!

ما حلمت به يومًا، فكل ما نحن به أكبر وأوسع من أحلامي.. فرحة أمي بهذا البيت لم يكن لها مثيل, خاصةً حينما اكتشفت أثناء بحثنا أن هناك عشتين للطيور، فهي تحب تربية الدجاج والبط، وكانت تفعل ذلك من حين لآخر ببلكونة شقتنا بمصر برغم شدة صغرها.

جلسنا مع أبي بإحدى غرف النوم، وهي واحدة من الغرفتين اللتين يفصلهما باب، وكلتاهما تحمل من السرائر اثنين، وكلتاهما تحمل دولابًا كبيرًا.. كان الأثاث كله بسيطًا، ولكن البيت كان خياليًّا.

اتكأ أبي على الوسادة بكل سعادة وفخر بأن كان سببًا في هذه السفرة ومتمنيًا رضاء أمي شاعرًا أنه قد حقق لها ما كانت تتمنى.

أرحت جسدي على ذات السرير, وأخذت أستمع إلى ما يدور من حوار بين أبى وأمي, مستمتعةً بذلك الهواء غير البارد الآتي من مروحة معلقة بالسقف.

وكنت قد شعرت بالحر الشديد بعد تلك الجولة بالبيت، لقسوة الشمس برغم الشتاء، دُرت بناظريَّ مع المروحة فاستسلمت للنوم دون أن أشعر، تاركةً عالمي الجديد، وعائدةً إلى عالمي الذي يهبني الراحة.

الفصل الخامس

يوم جديد أتى بالجديد أيضًا بعدما مرَّ الأمس بكل مفاجآته ومشقاته، فقد مر الأمس بكامله ما بين النوم واليقظة، وطعام (عواطف) زوجه عم حمزة السودانية غداءً وعشاءً.

أكلنا للمرة الأولى أكلًا سودانيًّا، وكانت قد أحضرته من فوق السور الفاصل بين بيتنا وبيتهم بالحديقة بعد تصفيقة فهمنا أنها أسلوب النداء هنا ما بين الجيران، وقد كان الطعام ليس مقبولًا بالنسبة لنا إلا أنه الجوع والإجهاد الذي جعلنا نضطر لأكله.

استيقظت في هذا الصباح الأول لنا هنا على طرقات قوية على بوابة المنزل ممتزجة بزقزقات العصافير لاهيةً فوق الزهور بالحديقة، فأسرعت نحو الباب لأرى من ذا الذي يطرق باب بيتنا، فإذا باثنين أحدهما طويل جدًّا والآخر متوسط الطول يتميزان بنفس اللون شديد السواد بجانب الملامح المتشابهة بالنسبة لي.

فهم أبي أخيرًا وبعد عناء شديد أنهما الخادمان المسئولان عن الاعتناء بهذا البيت، فسمح لهما بالدخول، ويبدو أنهما يعرفان

طريقهما جيدًا، فاتَّجها مباشرة إلي تلك الغرفة الموجودة بالحديقة بجوار السور الذي يفصل بين بيتنا وبيت عم حمزة، وكان بها سرير ودولاب وتسريحه وطاولة صغيرة كنا قد رأيناها خلال جولتنا بالحديقة بالأمس، فبدَّلَا ملابسهما وخرجا من الغرفة بملابس أخرى غير سليمة فقد كان بها رُقع وثقوب، ولم تكن على قدر جيد من النظافة.

كانا بعد دقائق واقفين أمام أمي يعرضان خدماتهما بعد أن عرَّف كل منها نفسه لها مشيرًا لنفسه بيديه، يعرف أن لهجته ليست بالسهلة بالنسبة لأمي، فعرفت وقتها أن الأول طويل القامة يُدعى (إدريس) والثاني يدعى (يوسف).

يوسف وإدريس يعرفان تمامًا ما سيؤديان في هذا المنزل، فاتجه الأول إلى المطبخ لغسل الأطباق وتنظيفه جيدًا ومسح أرضيته ثم اتجه إلى الغرف واحدة تلو الأخرى لتنظيفها وتنظيمها حوائط وأرضًا، ثم قام بفرش الملاءات الجديدة التي طلبها من أمي والتي كانت قد أحضرتها من مصر.

أما يوسف فقد أخذ ما كنَّا قد ارتديناه من ملابس بالأمس ليغسلها بجانب الحديقة في ركن ما به حجر كبير بالأرض فجلس عليه ومن أمامه (الطست) الذي قام بملئه بالماء ثم استخدم قطع صابون في الغسل، وبعد الغسل والنشر قام بكي ما يلزمه ذلك مما غسل، وكان الغسيل قد جف بسرعة غير عادية رغم أننا بالشتاء، ولكن حرارة الشمس في هذا البلد قادرة وحدها ليس على تجفيف الملابس بسرعة فقط وإنما على كيها أيضًا ولكنها وظيفته هنا.

وبعد أن أتم مهمته الخاصة بالملابس اتجه إلى العمل بالحديقة فقام بتنظيفها جيدًا.

وانتهت ساعات عملهما فتحمما في ذلك الحمام الذي بأحد أركان الحديقة. الحمام الصغير الذي لا يوجد به سوى دش وفتحة بالأرض فقط لا غير، فمن الواضح أنه الحمام الخاص بالخدم.

ثم أخذا يتحدثان بلهجة تختلف عن اللهجة التي تحدث إلينا بها، عرفنا فيما بعد أن اسمها (رطانة) أثناء ذهابهما.

ظللت طيلة اليوم استحضر صورة إدريس بطوله وعرضه حين شمَّر عن ساقيه وانحنى ليمسح أرض المنزل بالماء مستخدمًا (الخيشة)، وصورة يوسف الذي جلس كنساء قريتنا أمام الطست ليغسل الغسيل، لا أدري ماذا يدور بداخلي، فلست قادرةً على ترجمته، ولكن سؤالًا قد ظل بطرق أبواب أفكاري: (لماذا ؟!). فالمشهد كان غريبًا وجديدًا أيضًا بالنسبة لعيني.

كانت أمي في قمة سعادتها لأنها سترتاح من التنظيف والغسيل وكي الملابس، فرائحة الأتربة والصابون وبخار المكواة كلها كانت تسبب لها أزمات صحية حيث إنها تعاني من حساسية في الصدر، بالإضافة إلي العودة للإحساس بالراحة كما كان ذلك في بيت أبيها الذي كانت ظروفه المادية تسمح باستخدام خادمة تعين جدتي في أعمالها المنزلية، أما أبي فقد كان سعيدًا لسعادتها، فقد لاحظته يبتسم كلما تبتسم، ويضحك كلما تضحك.

يأتي كل من إدريس ويوسف في باكر كل صباح من هذا

الأسبوع الأول، وظلت تأتي السيارة (الحافلة) بميعاد محدد من كل صباح لتحمل أبي إلى عمله، وتبدأ بعد ذلك أمي في استقبال الزائرات الراغبات في التعرف عليها بداية من ذلك الوقت الذي هو بعد ذهاب أبي بساعة تقريبًا إلى ما قبل حضوره بدقائق، خاصة أن هذا الوقت هو أيضًا ذات الوقت الذي يكون به أزواجهن بالعمل، حيث إن الرجال جميعًا يذهبون معًا بنفس الحافلة ويعودون بها في توقيت معين، والكثير منهم يسكن بنفس المربع السكني الذي يطلق عليه (التمن بيوت) نظرًا لأنه يتكون من ثمانية بيوت أربعة بشارعنا وأربعة بظهرها بالشارع الخلفي، لا يفصل بين هذه البيوت سوى أسوار متوسطة الارتفاع يسكنها موظفو الري المصري، ونتميز نحن بأننا نرى مئذنة مسجد شروني، وهناك (العشر بيوت) وهي أيضًا عشرة بيوت متجاورة يسكنها مهندسو الري المصري بالخرطوم.

وهناك أيضًا مربع سكني ثالث يطلق عليه (الخمس بيوت)، وهي خمسة بيوت يسكنها عاملون بالري المصري أيضًا، هكذا سمعت من أبي، فكل يوم كانت هناك أقصوصة جديدة يقصها على مسامع أمي أثناء الغداء فتتناثر كلماتها على مسامعي أنا وأخوتي.

لعبت مع إخوتي ثم لعبنا ولعبنا في كل ركن في البيت حتى مللنا، فأين التليفزيون الذي تعودنا عليه من قبل؟ أين بقلظ وماما نجوى؟ أين أفلام السهرة بالقناة الأولى والثانية؟ فنحن لا نملك تليفزيون، ونستيقظ باكرًا جدًا قبل حضور يوسف وإدريس ويكون اليوم طويلًا جدًا يصيبنا بالملل، حتى حينما شعر أبي بذلك وقرر إخراجنا من المنزل لترفيهنا لم نجد شيئًا مما نحب

في تلك المحلات التي هي أصلًا متفرقة ومتباعدة، فهي محلات بقالة ولكن ليس بها من الحلوى والمثلجات ما تعودنا عليه أو حتى مثلها، بل لا توجد أصلًا، ولا حتى المقرمشات المملحة في الأكياس التي نحبها.. فما هذه الحياة الباردة؟! بِمَ يستمتع الأطفال هنا؟! لا يوجد هنا سوى اللِب والفول السوداني والحلاوة الطحينية التي يعتبرونها هنا حلوى للأطفال.. شعرت بضيق وبأنني أريد العودة إلى بيتنا الصغير في شارعنا الضيق بحيِّنا الشعبي الذي يكون به كل شيء قريبًا، فيصنع شيئًا لا أعرف اسمه، شيئًا أشعر به، فقط أشعر به.

ولكن ما هدأني قليلًا وربط على قلبي هو وعد أبي بشراء تليفزيون صغير، فله زميل قد أنهى مدة انتدابه بالري المصري وسيعود إلى مصر خلال أيام قليلة، وقد عرض عليه تليفزيونه حيث يعلم أنه لا يملك واحدًا.

جلست لتناول الغداء فكانت أقصوصة أبي اليوم على الغداء تخصنا نحن، أنا ومنال ونادر، فأخبرنا أننا ستذهب إلى مدرستنا الجديدة بداية من الغد، بعد أن أتم جميع الإجراءات اللازمة لذلك، وأصبحت أسماؤنا موجودة في قوائم الدارسين بالمدرسة النموذجية المصرية بالخرطوم، وكان هذا هو اسم مدرستنا الجديدة، وأننا سنكمل ما بدأنا من دراسة بالقاهرة، فأختي بالصف الثاني، وأخي بالسادس، وأنا بالخامس.

أسعدني وأسعد أخوتي هذا الخبر كثيرًا، آملين أن يحُدَّ ذهابنا إلى المدرسة من شعورنا القوي بالملل، فنامت منال هذه الليلة دون بكاء، ودون أن تترقب الطائرات في السماء كما تفعل كل

ليلة منذ أتينا إلى الخرطوم، فتجلس بالفراندا في ترقب وحينما تسمع الطائرة تتحدث إليها (تعالي خدينا يا طيارة.. تعالي خدينا أنا مش عايزة أقعد هنا تاني، أنا عايزة أروح مصر)، فتذهب الطائرة مبتعدةً عن أنظارها وتبقى هي باكية حتى يغلبها النعاس.

الفصل السادس

بدا يومنا هذا مختلفًا يحمل تفاصيل مختلفة، فقد استيقظنا مبكرين آملين أنا وإخوتي في يوم أفضل.

سمعنا (كلاكس) الحافلة التي كنا نترقب وصولها فأسرعنا بفتح الباب، وما إن وجدنا الحافلة أمامنا حتى تثاقلت أقدامنا شاعرين بالخجل أو الغرابة أو.. لا أدري، فلم نعتد ركوب سيارة للذهاب إلى المدرسة، فقد كنا نذهب إلي المدرسة سيرًا على الأقدام، يهتم الأكبر منا بالأصغر منه حتى وصولنا. ركبنا الحافلة بمساعدة أبي الذي فتح لنا الباب فوزعنا أنفسنا على الكراسي التي لا تحمل أفرادًا، وجلس أبي بالقرب منا، فقد كانت الحافلة ممتلئة بأمثالنا من التلاميذ.. منهم الأصغر، ومنهم الأكبر، ومنهم البنون، ومنهم البنات. جميعهم من أبناء موظفي ومهندسي الري المصري.

وُزعَت أنظارهم جميعًا علينا، لاحظت تفحصهم جميعًا لتفاصيل وجوهنا، وتسريحة شعر كل منا، وملابسنا المختلفة، كل ذلك خلال اندفاع السيارة قاطعة طرقًا مختلفة.

بعد نصف ساعة تقريبًا كنا أمام المدرسة بمرايلنا البنية

اللون ذات الزرائر الخلفية والحزام حول الوسط، الذي يغلق من الخلف، وحقائبنا غير الجديدة، التي كنا نحملها منذ العام السابق، لأنها ما زالت أحوالها جيدة حتى وإن انقطع جانب من حقيبتي، فقد قام أبي بخياطتها بيده بإبرة منجد قد اشتراها خصيصًا فأصبحت كالجديدة كما قال.

كانت هناك لافتة كبيرة جدًّا مكتوب عليها (المدرسة النموذجية الابتدائية المصرية). وكان أمام المدرسة أشجار كثيفة الأوراق، ويبدو أيضًا أن بداخلها العديد من الأشجار العتيقة الممتدة الفروع.

تبدو المدرسة مختلفة تمامًا، فالبنات ترتدي كل منهن (جيب) كحليًّا وقميصًا أبيض، ويرتدي البنون كل منهم بنطلونًا كحليًّا وقميصًا أبيض.

أمسكت جيدًا بيد أختي.. انتابني شعور بالقلق، وبأننا آتون من عالم آخر أو إلى عالم آخر لم يكن مقصدنا.

شدنا أبي من يدينا فأسرعنا معه إلى مكتب المديرة، كانت مصرية، استقبلتنا بترحاب ثم قبلتنا في حنان ممتزج بحدَّة، ثم سمحت لنا بالجلوس فوق هذه الكراسي الكبيرة المريحة، كراسي مصنوعة من الجلد، فسعدنا بذلك، ثم أخذت تتحدث إلينا بكلمات تشجيعية، وطلبت منا أن نلجأ إليها إذا ما قابلتنا أي مشكلة. ذهب أبي وتركنا حينما خرجنا من مكتب المديرة مباشرة، هكذا طلبت منه أثناء خروجها معنا استعدادًا لطابور الصباح.

انطلق أخي مبتهجًا سعيدًا بالجديد في حياته بعد أن أستأذن

من المديرة بادئًا في الاندماج به، فأمرتني بعد ذلك أنا ومنال بالاعتماد على النفس في البحث عن طوابيرنا.

ذهبت مع أختي منال غير تاركة يدها لأساعدها في البحث عن طابورها، فهي في فصل 2/2 كما أخبرتنا المديرة، ولم اتركها إلا في الطابور ووسط زملائها، ثم ابتعدت وأنا التفت إليها ما بين لحظة وأخرى خلال بحثي عن طابور فصلي، وحينما وصلت أخيرًا لطابور 2/5 وقفت بين زملائي وكان الطابور المقابل لطابور منال مما أعطاني إحساسًا بالراحة، فذلك سيتيح لي الاطمئنان عليها في كل صباح وليس في هذا الصباح فقط.

التفً من حولي زملائي ليتفحصوني هم الآخرون، سألتني إحداهن عن اسمي، والأخرى عن هذا الزي المختلف، والثالثة عن سكني، والرابعة عمًا إذا كان أبي يعمل بالري المصري، أم بجامعة القاهرة فرع الخرطوم، أم البعثة التعليمية المصرية، أم بهيئة مياه النيل المشتركة، أم بالسفارة المصرية، وكانت سودانية، فوجدت سؤالها صعبًا فأنا لم أفهم بسهولة ولا أعرف ما كل ما قالته وإنما فقط أعرف أن والدي يعمل محاسبًا بالري المصري وهذا ما أجبتها به.

فقد كان السودانيون أكثر عددًا من المصريين بالطابور وبالطوابير الأخرى أيضًا، ولكنهم كانوا مندمجين جميعًا يتحدثون ويتضاحكون وكأنهم كوب شاي بلبن، شعرت بذلك حينما نظرت إلى كل الواقفين بالمدرسة.

ارتاح لي زملائي حينما أجبت عن جميع أسئلتهم، فشعرت

بالتفاؤل حيث إن ذلك سيساعدني كثيرًا في أن أكون قطرة في كوب الشاي باللبن.

انتبه الجميع بعد (كله يقف في مكانه)، وكانت قد أُصدرت بصوت مصري في مكبر صوت، فاصطف الجميع كل في مكانه بجدية موجهين أنظارهم إلى ذلك المكان الذي اعتادوا أن ينظروا إليه كل صباح.

وقف في هذا المكان بعض المعلمين، وكانوا مصريين، وقد بدا ذلك من ملامحهم ولون بشرتهم، ووقف كل مدرس أو مدرسة أمام طابور الفصل الذي سيدرسونه في الحصة الأولى.

بدأت الإذاعة بقرآن ثم حديث، ثم حكمة، ثم أخبار صباحية، ثم من بعدها تحية العلم تحية مصرية لعلم مصري بصوت سوداني وبلهجة سودانية.

انطلقت الطوابير جميعها إلى الفصول، فانطلقت أختي وانطلقت معها أنظاري حتى غابت عنها، وذهبتُ أنا أيضًا إلي فصلي بين زملائي.. كان الفصل أكثر اتساعًا من فصلنا بمدرستنا القديمة وبه مروحة بالسقف على غير ما تعودنا في مدرستنا السابقة، وليس به (دكك) وإنما لكل تلميذ (كرسي وترابيزة) صغيرة أمامه مصنوعان من المعدن. أفسحت لي إحدى زميلاتي مكانًا فلم أجلس في مؤخرة الفصل.

ظللت طول اليوم أكرر إجابات بعينها كلما دخل مدرس لفصلنا وسألني عن بلدتي بمصر وعن عمل والدي هنا بالخرطوم، وبرغم شعوري بالملل من تكرار الأجوبة عن نفس الأسئلة، إلا

أنني شعرت باهتمام من الجميع جعلني سعيدة وقلل ذلك من إحساسي بالوحدة.

أحلى ما باليوم الدراسي هنا أن هناك حصة تسمى حصة الموسيقي نغني خلالها ونستمع إلى عزف المدرس ونستمتع به، وأن هناك فسحتين وليست فسحة واحدة، إحداهما يطلقون عليها الفسحة الكبيرة، والأخرى هي الفسحة الصغيرة، وأنه بعد انتهاء اليوم الدراسي لا نعود مباشرةً إلى منازلنا, فنجلس بحوش المدرسة ساعة أو أكثر لأسباب لا أعرفها, مستخدمين الكراسي الخاصة بالفصول بعد أن نكون قد اشترينا اللب والفول السوداني للتسلية في انتظار حافلاتنا.

واكتشفت أن هناك حلوى يشتريها الأطفال من بائعة جالسة أمام المدرسة مفترشة ركنًا من الأرض، إنها حلوي غريبة الشكل والطعم، عرفت ذلك حينما تذوقتها من إحدى الزميلات، وهناك أيضًا أقراص الدوم المكونة من الدوم المطحون، كما أن هناك الدوم الصحيح المتوفر بكثافة، فعلت مثلهم فاشتريت كما يشترون وجلست مثلما يجلسون، كل ذلك كان بإرشادهم لي إلى ذلك، حيث الاستمتاع بالوقت وتجنب الشعور بالملل حتى تأتي الحافلة الخاصة بتلاميذ أبناء العاملين بالري المصري، كما عرفت أن هناك حافلات خاصة بأبناء العاملين بالجامعة، وأخرى تابعة للهيئة، وأخرى تابعة للسفارة، وهناك السيارات الخاصة ببعض أبناء السودانيين، وهي سيارات ملاكي تخص الأثرياء على الأغلب، كما توجد حافلات خاصة بأبناء السفارات.. تجتمع الحافلات أمام المدرسة أو يتوالى تواجدها، فتنسحب كل مجموعة أتت الحافلة الخاصة بهم مودعين الباقين على أمل

(ونسة) مثل هذه في الغد.

وفي الميعاد الذي حدده لي السائق كنت أودع صديقاتي الجديدات اللاتي اكتسبتهن، ثم وقفت أمام المدرسة تحت الشجرة الكبيرة المميزة نظرًا لشدة حرارة الشمس، التي جعلتني أتمنى أن أغمض عيني وأفتحهما فأجدني في المنزل أمام التكييف.

ووجدت أيضًا من كانوا معي صباحًا بالحافلة يقفون منتظرين تحت نفس الشجرة، وبما أنهم لم يصبحوا أصدقائي فلم يَدُرْ بيننا إلا مجرد نظرات متبادلة فقط.

أما أختي فقد كانت بجانبي كما كانت في جلسة الونسة الخاصة بي وبصديقاتي أيضًا على غير رضاها، فأنا لم أسمح لها أن تجلس مع صديقاتها الجدد خوفًا من أن نضيع من بعضنا البعض، وأتى نادر بعدنا ووقف بجانبنا وكان في قمة سعادته بهذا اليوم الدراسي، أمًّا أنا فكان بالنسبة لي يومًا مُرضيًا.

فنادر يحب كل جديد ويستمتع به حتى وإن كان مرهقًا في بعض الأحيان، فهو لا يشعر بالغربة مثلي ومثل منال، فقد انسجم مع الكثيرين وأصبح صديقًا لهم من مجرد يوم، فقد كانوا يودعونه بحرارة غير عادية.

نهاية، فوجودنا بهذه المدرسة قد أتاح لنا رؤية أشخاص يتحدثون بلهجات غير لهجتنا, ويحملون جنسيات غير جنسيتنا، حتى أحاديثهم تختلف عن أحاديثنا.. جنسيات لم نتخيل يومًا أن نلتقي بها ولو في أحلامنا.

الفصل السابع

مرت شهور ثقيلة على قلبي، فبرغم أن كل شيء مريح هنا إلا أنني أشعر بالاحتياج لأشياء لا أعرف مسماها، كما أن هناك شيئًا يُشعرني بالضِيف، شيء يتسلل إلى قلبي ونفسي ببطء فأنفعل أحيانًا بدون سبب وأبكي أحيانًا أخرى لا أدري لماذا.

أشعر بشوق لماما نجوى وبقلظ وكأنها أمي وكأنه صديقي.

أريد العودة إلي بيتنا، فبيتنا هناك في بلدنا في مصر.. هناك شيء لا أطيقه.

غلبني البكاء أثناء مذاكرتي فانتبه إليَّ أبي قائلًا:

- مالك يا حبيبتي؟ إيه اللي مزعلك؟

- أنا عايزة أسافر.. عايزة أرجع مصر.

قلتها وقد ازددت بكاءً، فاركةً عيني بيدي.. احتضنني أبي متأثرًا وكأنه يشعر أنه السبب في بكائي.

- خلاص يا حبيبتي الدراسة قربتْ تخلص وهنرجع مصر بعدها على طول.

ثم مسح لي دموعي بيديه في حنان، وأخذني من يدي تاركين الكتاب وحده، وفتح لي التليفزيون، الذي يفتقد الألوان جميعها إلا الرمادي.

جلست حتى بدأ برنامج الأطفال الوحيد الذي يذاع خلال اليوم، وذلك بعد قرآن افتتاح القناة الوحيدة بالتليفزيون، فاستيقظ إخوتي، فالساعة الآن الخامسة والنصف بعد العصر أو قبل المغرب لا أدري، ولكنه ميعاد برنامج الكرتون الوحيد خلال اليوم، وهذا توقيت وحدة بالنسبة لي.

الجميع هنا كبارًا وصغارًا معظمهم ينتظرون هذا البرنامج بشوق كما ينتظرون مسلسل الثامنة مساءً وغالبًا ما يكون مصريًّا، وفي بعض المرات سوريًّا وأحيانًا أردنيًّا.

كما يكون من الصعب على الكثيرين تناسي الفيلم العربي لسهرة يوم الخميس، وغالبًا يكون مصريًّا أيضًا، ومن المميز بسهرات التليفزيون ذلك الفيلم الأجنبي لسهرة يوم الجمعة.

ففي ليلتي الخميس والجمعة هاتين يسهر الجميع إلى الساعة الواحدة صباحًا، حتى نحن الأطفال فيسمح لنا بالسهر فيهما، أما باقي ليالي الأسبوع فتغلق عنا شاشات التليفزيون باكرًا، وننام بعد مسلسل الثامنة مساء مباشرةً، وذلك بعد أن نكون قد انتهينا من واجباتنا.

انتهت حلقة الكرتون التي بعثت بقلبي شيئًا من الهدوء فقمت لأبدأ الاستعداد للذهاب إلى النادي، فاليوم الخميس، وقد تعودنا الذهاب للنادي في مساء كل خميس، فنذهب للنادي العربي، الذي

يجمع ما بين جاليات عربية مختلفة، فقد أصبح لأخي صديق فلسطيني وآخر أردني، طبعًا بالإضافة إلى أصدقائه المصريين الكثيرين وأصدقائه السودانيين الأكثر؛ ذلك لأن أخي سريعًا ما يندمج في أي وسط وُجد به، فهو يحب التعارف ويحرص دائمًا على إنشاء صداقات جديدة، ويحبه كل من تعرف عليه، أما أنا ومنال فقد أصبحت لنا صديقات غير مصريات ولا سودانيات أيضًا، مثل (نتالي) البنت السورية شديدة الجمال والبياض، التي دائمًا ما نشعر أنها قطعة بسكويت لحساسية مشاعرها, و(ألفت) التي كانت معنا بالمدرسة وهي كويتية، و(مروج) تلك البنت العراقية طويلة القامة بالنسبة لنا، ذات الشخصية الجذابة، التي تجذب جميع الأطفال إليها بكل سلاسة.

نتناول العشاء بالنادي بين مرة وأخرى بعد الإلحاح على أمي بالموافقة، فرائحة وجبة (الاسكالوب بانيه) رائعة جدًا ولا تُقاوم، ولكن لا يمكنني أن أطلب تناول هذه الوجبة من أمي وأبي في كل مرة نذهب إلى النادي، حيث إننا لا بد أن ندخر كل قرش لتحقيق حلم تغيير السكن كما تقول أمي دائمًا.

ذلك، وإما أن نذهب لنادي ناصر الثقافي، نسبة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، ولكن هذا النادي دائمًا ما يكون أقل متعة بالنسبة لي، حيث إنه لا يتوفر به ملعب للكريكيت، ولا صالة للبلياردو، ولا قاعة للشطرنج، ومع أنني لا أجيد أيًا من هذه الألعاب إلا أنني أستمتع بمتابعتها من بعيد، خاصة الكريكيت، فأخي متميز فيها ودائمًا ما أتابعه أنا ومنال وصديقاتنا.

نادي ناصر الثقافي أعضاؤه فقط مصريون، فلا نرى وجهًا

لسوداني غير العاملين به ولا حتى غير سوداني، فغير مسموح لغير المصريين بعمل عضوية بهذا النادي حتى السودانيين، فالنادي مصري بداية من علم مصر الذي يرفع أعلى بوابته ونهاية بأغاني أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش التي تجلجل في أركان النادي.

حتى شاشة العرض الكبيرة جدًّا تعرض دائمًا، وفي ساعة معينة من مساء كل يوم، فيلمًا مصريًّا، فكثيرًا ما شاهدنا به أفلامًا لعادل إمام وماجدة ونادية الجندي.

ولا أنسى أبدًا أنني رأيت ماجدة الممثلة وسلمت عليها حينما حضرت ندوة بعد عرض فيلم (العمر لحظة)، فقد كان ذلك كالحلم بالنسبة لي، فما تصورته يحدث يومًا أبدًا.

أخرجت ملابسي من الدولاب استعدادًا لارتدائها، وحينما أتى والدي وأخبرني أنني لا يمكنني الذهاب إلى النادي اليوم، ذلك لأن الامتحانات قد اقتربت، ازداد شعوري بالحنين إلى مصر، فأبديت طاعتي لقراره، ولكني ظللت أبكي مختبئة بكتابي حتى نمت فوق كلماته، وحينما استيقظت وجدتني في سريري وكل النوافذ مغلقه والكهرباء مقطوعة وأمي تعاني من ضيق شديد في النفس، فاستوعبت أنها رياح الهبوب التي تأتي دائمًا دون مقدمات، ويسميها الجميع (الهبوبة).

إنها السحابة داكنة اللون، والتي تهب علينا في أي وقت تشاء، فإذا ما رأيناها أثناء وجودنا بالحديقة جرينا حاملين الكراسي وأي شيء معنا إلى الداخل حتى لا ترمي بها بعيدًا وتغمرها بأكوام التراب الأصفر، أما إذا تلكأنا لثوانٍ ففي مقدورها أن تنال

منًّا هذه الرياح التي تستطيع أن تقطع أسلاك الكهرباء الهوائية وتقطع الضعيف من أوراق الشجر.

فهذه السحابة لا تراعي أبدًا من يعاني من حساسية بالصدر ولا تراعي رغبتنا في اللعب.

تنتهي (الهبوبة) دائمًا وتترك أمي متعبةً تعاني لأيام كثيرة من أزمة صدرية، وتترك أيضًا هذا التراب الأصفر فوق كلٍّ شيء بالمنزل، فكل شيء يغطي كليًّا بالتراب فتختفي ملامحه تمامًا، فلا يمكن أن نرى لون السُّفرة أو حتى لون ملاءات السرير أو الأكواب، خاصة ما نتركه أو ننساه بالفراندا ، تتقطع أسلاك الكهرباء في غالب مرات هبوب هذه الرياح.

كان هذا دائمًا هو أسوأ ما بالإقامة بالخرطوم بالنسبة لأمي.

هدأ كل شيء من حولي إلا حالة أمي، وجاء إدريس ليبدأ عمله الذي اعتاد عليه، وبقيت أمي بالحديقة حيث الهواء بعيدًا عن تراب المنزل فودعناها ذاهبين إلى يوم دراسي جديد.

الفصل الثامن

انتهت أخيرًا امتحاناتنا، وبدأت إجازتنا، وخلال أيام مرت كمرور السلحفاة أصبحنا نتأهب للعودة إلى مصر بعد أن ظهرت نتائجنا سريعًا، والتي لم تكن سيئة، وقد حصل نادر على الشهادة الابتدائية وقد أصبح رجلًا، حيث إنه سيدخل مرحلة جديدة هي المرحلة الإعدادية، أي عالم الكبار في نظري.

كانت أمي خلال هذه الأيام حريصة على الاعتناء بمزرعتها الصغيرة التي كانت قد تمكنت من تكوينها خلال الشهور السابقة، وكان الاعتناء بها ممتعًا بالنسبة لها.

استيقظتُ بعد العصر واتَّجهت ككل يوم إلى الحديقة الخلفية لأجد أمي جالسة على كرسيها المعتاد وأمامها طيور من البط والدجاج، كانت أطلقتهم في الحديقة ليأكلوا من الحشائش كما يريدون، ودائمًا ما كنت أشعر أنهم سعداء بهذا الانطلاق.

أحضرت كرسيًّا وجلست بجانبها لنراقب الحدأة في السماء، والتي كانت قادرة على اختطاف كتكوت أو دجاجة صغيرة، وبدأت أمي في متابعة الدجاج أرضًا وحددت لي مهمة النظر إلى السماء لحراسة الطيور.

فقد كانت توجههم بعصًا صغيرة في يدها إلى الأماكن المسموح لهم بأكل حشائشها، فهي تقول دائمًا إن الحشائش ضارة بالزرع، وكان أبي قد زرع لنا بعض الخضراوات التي نحتاجها باستمرار في المنزل مثل الملوخية والبامية والباذنجان، كما زرع لنا القرع العسلي، وكان قد افترش الأرض بشكل غير عادي فأفرعه تتمدد بشكل غريب وبسرعة لم أرها من قبل، كنت أذهب كل يوم أنا ومنال لنقيس زيادة امتداد الأفرع بأقدامنا.

كما أن الدجاج يبيض أكثر كلما أكل الحشائش الخضراء، هذا ما فهمته من أمي.

قمت بدوري بشكل جيد فكانت أنظاري موجهة إلى السماء دائمًا إلا حينما سمعت صوت شجار الكتاكيت مرة فنظرت إليهم نظرة سريعة مستمتعةً بذلك ثم عدت إلى السماء، ثم مرة أخرى أيضًا حينما أبعدتهم أمي بعصاها عن نبات القرع.

تحلق الحِدأة بجناحيها مرتفعة تارة ومنخفضة تارة أخرى، وكلما انخفضت وقفت أنا فتبتعد في السماء مختفية عن أنظاري ثم تعود لتحلق من جديد!.

استيقظت منال واستيقظ نادر أخيرًا ليعاونانى في هذه المهمة، فقد تعبت, توجهت بأنظاري لحظتها إليهما لأقول لهما ذلك، وإذا بصوت الكتكوت يستغيث من السماء، فقد أمسكت به بين أصابعها الطويلة وحلقت به في السماء البعيدة.

كان غضب أمي شديدًا، فقد اقتربت مني وضربتني بالعصا معنفةً إياي، فقد رأتني حين نظرت إلى إخوتي.

الكتاكيت بالنسبة لأمي كصغارها، بالإضافة إلى مضاعفة اهتمامها بهم في هذه الفترة، حيث إننا سنسافر قريبًا، فهي تتمنى أن يكبروا بسرعة حتى إذا تركتهم استطاعوا احتمال عدم وجودها، حيث إنها ستتركهم تحت رعاية (إدريس) وهي تعلم جيدًا أنه لن يعتني بهم بقدر ما تفعل هي.

أَبَعد كُل هذا المجهود الذي بذلته أمي معهم يضيع واحد بهذه البساطة؟ وقد كنت أنا أيضًا سببًا في ضياع واحد آخر منذ يومين؛ لذلك لم تسامحني أمي.

قمت من مكاني عائدة من حيث أتيت مطأطئة رأسي شاعرة بخطئي، وتركت لإخوتي ذات المهمة.

أخذت أجهز ما يخصني من ملابس في الحقيبة الكبيرة المفتوحة دائمًا خلال يومين، وذلك طبعًا بعد أن تمر الملابس أولًا على أمي فتوافق على وضعها بالحقيبة، كان اهتمام أمي الحقيقي بترتيب الهدايا بالحقائب, أيْ هدايا الجيران والأهل والأصدقاء، ومعظمها عبارة عن عدد كبير من أكياس الفول السوداني واللب الأسمر والكركديه والحناء بنوعيها الخضراء والسوداء، فامتلأت حقائبها عن آخرها؛ كون هذه الأشياء تأخذ حيزًا كبيرًا، وكلما امتلأت حقيبة توترت أمي حيث أصبح إغلاقها صعبًا.

أما الحقائب اليدوية الصغيرة والمصنوعة من جلد الثعبان أو الأصلة أو الورنة فهي قليله العدد جدًا وستوزع على أناس بأعينهم، حيث إنها باهظة الثمن وتتعارض مع فكرة ادخار المال، وهذه لم تأخذ حيزًا كبيرًا في الحقائب.

أغلقت أمي الحقائب جميعها، ثم ذهبنا بعد أيام فتركنا روائح الفل والياسمين والورود والرياحين بالحديقة، وأشجار الورد الهندي والحناء والليمون والمانجو، تركنا المشهد الجميل.

وتركت أمي عشه الدجاج والبط وكتاكيتها الصغار، تركنا الأرجوحة الصغيرة التي كنا نلعب بها في حديقة المنزل، تركنا الشوارع العريضة والنوادي الرحبة، تركنا كل ذلك من أجل العودة إلى شارعنا الضيق وبيتنا الصغير، ومن أجل ذلك الشيء الذي يشدنا إلى هذا المكان، والذي لا اعرف اسمه ولا معناه.

الجيران في انتظارنا، فبعضهم في الشارع, وبعضهم في الشرفات, فقد أرسل إليهم أبي بخطاب لإعلامهم بميعاد حضورنا، رأيت الشارع وقد ازداد ضيقًا واقتربت الشرفات المتقابلة بعضها من بعض، انتابني وقتها شعور بالسعادة، وبأن الشارع يحتضنني، كل ذلك رأيته من نافذة السيارة الأجرة التي بالكاد استطاعت المرور بجانب سيارة قد ركنت أمام أحد البيوت, وبمجرد استقرار السيارة أمام باب البيت أخذ كل من كان في انتظارنا باحتضاننا بحرارة، ونزل من كانوا في الشرفات ينتظرون، الجميع يرحب بقدومنا.

(الله) كلمة أطلقتها وأنا أمسك بيد منال ضاحكة كما فعلت هي أيضًا.

حُملت عنَّا الحقائب إلى أن وُضعت داخل الشقة، وجدناها نظيفة مرتبة، وكل شيء في مكانه كأننا لم نتركه، لكنها أصبحت صغيرة جدًّا.. نعم أجدها كذلك، ورغم ذلك لم أتراجع عن فتح ذراعيَّ فاحتضنت هواء بيتنا، بعدما تركنا الجميع لنستريح

قائلة: (يااه.. بيتنا وحشنا قوي).

ظللنا نستقبل ضيوفنا أيامًا كثيرة. أمتعني ذلك الجو كثيرًا، فأنا ألعب كل يوم مع أصدقائي الذين افتقدتهم مُنذ شهور، فقد اشتقت إليهم كثيرًا، ولكني أشعر أيضًا بأني مختلفة، لست كما كنت سابقًا. فأنا الآن أكثر علمًا منهم، فقد سافرت بالطائرة مرتين، عشت ببلد آخر وعرفت أناسًا جُددًا، فتعلمت ألعابا جديدة، وتعلمت أيضًا لهجة جديدة أتحدث بها معهم حينما يطلبون مني ذلك فيمتعني ذلك أحيانًا، ويُصيبني بالملل أحيانًا أخرى.

توزع أمي الهدايا على كل من أتى لزيارتنا ترحيبًا بقدومنا واشتياقًا لنا. أما جيراننا فقد كان لهم نصيب الأسد مما أحضرت أمي معها من الخرطوم قائله إنهم: - أحسن من الأهل وبتلاقيهم في كل المواقف.

مضى شهران كاملان ممتعان قضينا منهما شهرًا متميزا ببلدتنا بأسيوط ومع جدتي التي تبقى وحيدة طالما أمي بعيدة عنها، وبما أن أمي دائمًا بعيدة فهي دائمًا وحيدة، فقد مات جدي منذ زمن بعيد، فأنا حتى لا أذكره، ثم كبرت الخادمات المقربات واللاتي كنّ يُعِنَّها على الوحدة، ثم ابتعدن (الزمن غير الزمن) كما تقول جدتي دائمًا، وبقيت وحيدة برغم وجود خالي (خالد) وهو ابنها الوحيد الذي تزوج معها في نفس البيت حتى لا يتركها وحدها، ولكنها لم تكن تحب زوجته أبدًا ولا هي أحبتها يومًا. فتقول دائمًا إنها نفرية ومبتحبش الناس ومش خدومة, لم ينجب خالي خالد أبناء، مما زاد شعور جدتي بالوحدة، وجعلها

دائمًا في حالة انتظار، فكلمة الانتظار كانت تتكرر في معظم محادثاتها الهاتفية مع أمي، وفي معظم رسائلها، فالبرغم من أن جدتي لم تحصل على أية شهادات تعليمية إلا أنها كانت تجيد القراءة والكتابة، فقد كان أبوها قاضيًا، وقد حرص على تعليمها القراءة والكتابة على غير العادة في ذلك الزمن في تلك البلدة، وذلك لأنه لم ينجب بنين، فقد كانت (خلفته كلها بنات) كما سمعت من جدتي.

شعرت أثناء ذلك الشهر بأن سعادة جدتي لا توصف بوجودنا معها، فكلما جاءت زائرة كانت تقول لأمي إن:

- جدتي وشها مبينورش كده غير لما تيجي.

ترحيب أعمامنا وأبنائهم أيضًا بنا كان غير عادي، فهناك أشياء غير عادية أشعر بها.. هناك شيء مختلف.. لغة مختلفة في الحديث والترحيب والاستقبال، فالكل يحضرنا ليستمع إلى ما عرفناه من جديد.. السودان والحياة بها ولهجة أهلها، وأنواع طعامهم، والبيوت والتعليم.

هناك شيء لا يوصف بل يُحس.

عدنا بعد ذلك إلى القاهرة، ثم عدنا إلى الخرطوم بعد ذلك بأيام، بعد أن عادت أمي فوضعت مفاتيح شقتنا في يد أم عايدة مرة أخرى.

- ياه.. بيتنا وحشنا قوي!

وقد كنت قد اشتقت إلى هذا البيت أيضًا. اشتقت إلى أصدقائي بالمدرسة، إلى النادي، إلى كل شيء تركته.

عادت أمي لترعى طيورها من جديد، وعاد أبي إلى عمله الذي اشتاق إليه.. منذ اليوم التالي لمجيئنا بدأنا في استقبال الزوار من الأصدقاء، تتحدث أمي والنساء ويتحدث أبي والرجال عن شيء جديد قد حدث أثناء غيابنا عن عالم السودان، يتجدثون عن ثوره تسمى بـ(الإنقاذ الوطني)، لم يهمني ذلك أبدًا، فلم يتغير شيء في حياتي، فالكتب معظمها في الطريق إلى الخرطوم، والمعلمون أيضًا معظمهم قد حضر من مصر في استعداد لعام دراسي جديد، فلا نية لتأجيل أو تعطيل لهذا الموسم الدراسي مع الأسف، فهذه فقط هي الأخبار التي تهمني.

على عكس أخي الذي اهتم بسماع ذلك الحديث، بل وأخذ يبدي رأيه أمام الجالسين بطريقة أجده يحاول بها تصنع طرق الرجال في الحديث، كما لم يتمنَّ أبدًا أن تُؤجل الدراسة، فهو مقدم على المرحلة الإعدادية وسيلتحق بالمدرسة الإنجيلية الإعدادية المصرية للبنين، ولأول مرة سيتركنا نادر، وسأبقى وحدي أنا ومنال في مدرستنا.. سنبقى دون رجل يحمينا إذا لزم الأمر.

ذلك فقط ما كان يقلقني كلما اقترب موعد بدء الدراسة.

الفصل التاسع

فتح يومُنا الباب لصباح جديد سعيد بالنسبة لي، فهذا هو يومي الأول في عامي الأول في المرحلة الإعدادية.

صففت شعري وارتديت ثيابي المدرسية الجديدة ذات نفس ألوان ثيابي بالعام الماضي، ركبت الحافلة التي وقف بها سائقها أمام مدرسة الكلية (القبطية المصرية) مدرستي الجديدة، المدرسة الإعدادية والثانوية مدرسة الآنسات.

في السابق كنا نمر بها أولًا وتنزل من تنزل من راكبات الحافلة، ثم ينزل طلبة الإعدادي بالمدرسة الإنجيلية للبنين، ثم طلبة مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية بنين، أو الكلية القبطية للبنين، وهي أيضًا ثانوية.. -أيهما أولًا! - وأخيرًا المدرسة النموذجية الابتدائية، أما الآن فسأكون أول من ينزل من الحافلة وسينزل الجميع من بعدي.

مدرستي وحدها مُجْتَمَع ببناتها اللاتي كنا نراهن أمام المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، كنَّ يتضاحكن ويَجرين خلف بعضهن البعض، فأظنهن دائمًا سعيدات كما كان يُحكى عنهن، ما جعلني أتخيل أنني قد اشتركت اشتراكًا سنويًّا في حفلات

سينما يومية، فقد سمعت الكثير عن قصص حب مشتعلة تبدأ من أمام بوابة المدرسة، وأظنني سأتابع فيما بعد تفاصيلها.

فبمجرد نزولي من السيارة شعرت أنني واحدة من هؤلاء البنات الناضجات.

أما الشيء الوحيد الذي آلمني فهو أنني قد تركت أختي وحدها في الحافلة ونزلت، بل وسأتركها تذهب إلى مدرستها وحدها بدوني، تركتها وعيناي تضع على عينيها قبلة يدفعها الخوف عليها.

حينما دخلت المدرسة ووقفت في طابور الصباح لم أشعر بتلك السعادة التي كنت أشعر بها قبل دقائق، فأنا ضئيلة جدًّا وكلهن كبيرات، فأصغر صف هو الأول الإعدادي في هذه المدرسة الإعدادية الثانوية، فطالبات الثانوية واثقات جدًّا من أنفسهنّ، وطالبات الشهادة الإعدادية أيضًا لإحساسهن بالاقتراب من المرحلة الثانوية، أما صفنا الأول فعديم الثقة بنفسه، وأما الثاني فقد اكتسب شيئًا من الثقة مع ازدياد أعمار طالباته عامًا كاملًا.

ولكني بانتهاء اليوم الدراسي تعرفت على ابتسام صديقتي المصرية الرقيقة، كما ارتحت لوجود زميلات لي كنت أعرفهن منذ أيام النموذجية، (مروج) العراقية و(ألفت) الكويتية، فقد انتقلنا أيضًا إلى ذات المدرسة, مما زاد شعوري بالطمأنينة.

مروج ناصعة البياض، الجميلة، عريضة الكتفين، متحدثة لبقة وضحوك منطلقة.. قد كونت صداقات كثيرة جديدة في

هذا اليوم، و(ألفت) كانت بشرتها بيضاء أيضًا، ولكن ليس بقدر بياض مروج، وكانت ذات جسم ضئيل، وهادئة الصوت، هادئة في انفعالاتها.

سوزان الفلسطينية قد انتقلت إلى فصل آخر مع أنها كانت معي بنفس الفصل بالنموذجية، أما الوجوه السودانية فمعظمها نفس الوجوه التي كانت معي بالنموذجية، قضيتُ يومًا دراسيًّا لا بأس به بعد ذوباني في عالمي الجديد القديم، وفي نهاية اليوم كان علينا أن نسلم على بعضنا بحرارة؛ ذلك لأننا لن نجيء إلى المدرسة في اليوم التالي، فيوم الأحد إجازة، وكان هذا شيئًا ممتعًا بالنسبة لي وجديدًا أيضًا، فهناك عطلتان أسبوعيًّا: الجمعة والأحد، وأما الأحد فقد كان كما علمت لمجموعات التقوية، فتأتي بهذا اليوم من تشترك في المجموعات فقط وترتدي ما تشاء من ملابس دون الالتزام بالزي المدرسي، ويوم الأحد هنا يوم ترفيهي تتقابل فيه البنات ما بين المجموعات في حوش المدرسة لتفعلن ما تشاء دون قيود.

مر اليوم الأول، يوم السبت بكل تفاصيله، ثم تلاه الأحد يوم الإجازة، وقد كان إجازة فعلية، حيث لم تبدأ بعد المجموعات بالمدرسة، مر بعده الاثنين ثم الثلاثاء، ثم الأربعاء، ثم الخميس.

كل يوم مضى زادني انصهارًا في مجتمعي الجديد.

رغم أنه الخميس إلا أنني لم أتمكن من الذهاب إلى النادي العربي كما تواعدت مع صديقتيَّ (مروج) و(ألفت)، اللتين كانتا مواظبتين على الذهاب إليه كل خميس؛ وذلك بسبب عطل قد أصاب السيارة ولم يتم تصليحه بعد، فكان هذا سيئًا جدًا،

فستذهب صديقتاي خصيصًا من أجل أن نقضي وقتًا ممتعًا مع بعضنا البعض ولن تجداني... وكان شيئًا مملًّا جدًّا.

جلست بالحديقة وحدي، فالساعة السادسة، وقد استيقظ الجميع إلا أنني لم أنم أصلًا قبل عصر هذا اليوم، لشعوري بالضيق من هذا الخبر, فتاريخ هذا اليوم كان مميزًا بشكله المنسق فوق السبورة، مما جعلنا نتفق على الاحتفال بهذا التميز في التاريخ بقضاء اليوم بكامله معًا، فاليوم هو 1988/8/8 أي الثامن من الشهر الثامن من عام ثمانية وثمانين, ولكنها المقادير التي كثيرًا ما توجهنا إلى ما لا نريد, أو تمنعنا عمَّا نريد.

جلست على الأرجوحة في انتظار طنط (مريم) الزائرة المُنتَظَرة لأمي، فقد سمعت أنها ستأتي اليوم خصيصًا ومعها (ثوب) ستهديه لأمي, فحينما شعرت أنها قد أعجبها هذا الزي السوداني وسألتها عنه وعن أسعاره بالأسواق وعدتها طنط مريم بإحضار واحد لها بمناسبة عيد ميلادها الذي كان أول أمس, والذي لم نَعْتَدْ أن نحتفل به, ولم نُهْدِ أمي يومًا شيئًا بمناسبتهِ, فكان جميلًا أن تفكر طنط مريم في فعل ذلك, وقد كانت أقرب صديقات أمي السودانيات, وذلك بعدما كونت أمي صداقات قوية مع بعض السودانيات بخلاف صديقاتها المصريات، واللاتي كانت تتعرف على أغلبهن من خلال ذهابها إلى النادي أو من خلال معرفتنا نحن بأبنائهن.

تعلمت أمي ارتداء الثوب السوداني ورسم الحناء على يديها وقدميها، وذلك عن طريق الحنانة التي ترسم الحناء لطنط

(مريم) حينما كانت أمي تزورها في بيتها فتجدها ترسم لها على قدميها ويديها، فاستطاعت الحنانة أن تقنع أمي بالتجربة حتى اقتنعت ونفذت ذلك، فكان جميلًا جدًّا ذلك لبياض بشرة أمي، فكان رسم الحناء السوداء يبدو واضحًا جدًّا بل لافتًا، وكأنها لوحة مميزة لفنان لا يمكن ألَّا ينظر إليها من يراها.

بدأت أشم رائحة عطر سوداني باهظ الثمن، ولم تمر دقيقة إلا وكان جرس الباب يدق، فجريت مسرعةً لأفتح الباب، فكلنا نحب طنط (مريم) وهي أيضًا تحبنا جدًّا، خاصة أنها لم تحظ بالقدرة على الإنجاب، فكانت تحب جميع الأطفال بما فيهم أبناء زوجها فهي الزوجة الثانية له وله من الأولى خمسة أبناء؛ لذلك لم يشعر أبدًا بالضيق من هذا الأمر، بل على العكس كان يرتاح لذلك حيث يجد الراحة والهدوء في بيتها.

فتحت الباب فوجدتها أمامي في كامل أناقتها كالعادة، كلهن ترتدين (الأتواب) إلا أن طنط مريم دائمًا ما ترتدي (أتوابًا) مميزة باهظة الثمن، تبدو كذلك من مظهرها، ولأنها أيضًا زوجه لتاجر ثري، بل يُعد من كبار تجار المواشي بالخرطوم.

امتلأ البيت برائحة عطرها فأتت على إثر ذلك أمي وأتت (منال) ولم يأتِ (نادر) كونه رجلًا.

أجلسناها بالحديقة وجلسنا معها على كراسي الحديقة التي يصنع هيكلها من المعدن وداخلها من الحبال البلاستيكية المطاطة, وذلك لأنها قد أتت ليلًا، أما إذا كانت قد أتت نهارًا كعادتها فكانت ستتمدد على السرير الذي وضعتْهُ أمي بالفراندا خصيصًا من أجل صديقاتها السودانيات، اللاتي تحب الواحدة

منهن أن "تجيل" أي تتمدد على السرير لتأخذ راحتها، ونظرًا لأننا ليس عندنا "عنجريب" أي السرير المصنوع داخله من حبال، ويضعه السودانيون بالحديقة التي يسمونها "حوش"، فضلت طنط مريم الجلوس بالحديقة أملًا في مرور نسمة هواء بدلًا من الاسترخاء على السرير بالفراندا.

لم أقم أنا ولا "منال" من مكاننا إلا بعدما أخرجت طنط مريم التوب لأمي وشاهدناه جيدًا ومددنا عليه أيدينا لنتحسس ملمسه رغم إزاحة أمي لأيدينا, وكان عبارة عن حديقة ورود صفراء تكاد تزغلل العين.

جلست ما لا يقل عن الساعة، لعبنا خلالها أنا ومنال بالأرجوحة بالقرب منها بعدما رأينا "التوب" الذي كنا ننتظر رؤيته، ثم ذهبت مريم تاركة عطرها في المنزل وفي أيدينا، استعدادًا لمشاهدة مسلسل الثامنة، فهو مصري وجميعنا نتابعه، فلم تقبل دعوة أمي لمشاهدته معنا قائلة إن زوجها سيحضر بعد قليل، وإنها ليس بعادتها زيارة أحد ليلًا إلا أنها أتت فقط من أجل إحضار الثوب، طالما أنها قد اشترته اليوم من السوق العربي، فالسودانيات عادة لا يتزاورن مساءً.

التففنا حول الشاشة الصغيرة جدًّا، انتظارًا للمسلسل وقد أحضرنا اللب والفول السوداني للتسلية أثناء مشاهدة المسلسل.

خرجت إلى الفراندا لأحضر نظارة أبي التي نسيها على الطاولة، فإذا بالأحوال تتغير، فتبدأ عواصف الهبوب ملء الجو بالأتربة، وتحريك الأشجار بقوة أخافتني، فجريت إلى الداخل مغلقة خلفي الباب، ووجدتهم بالداخل يغلقون النوافذ والأبواب

الأخرى جميعها.

أسرع أبي في فعل ذلك خوفًا على صدر أمي من ضيق قد يلازمها مدة ليست بالقصيرة.

الساعة الثامنة بالضبط، ولم تقطع الكهرباء، وبدأ المسلسل في موعده دون تأخير كما يحدث في كثير من الأيام، وهدأت الهبوبة بسرعة على غير العادة أيضًا، ولكنا سمعنا طرقات الماء تتساقط على نوافذ المنزل، ففتحت الباب بحرص لأرى ما يحدث فوجدت المطر قد بدأ ينهمر، إلا أنني والجميع رغم راحتنا لذلك لم نهتم لأن نخرج لمشاهدته حتى لا تفوتنا الحلقة التي ننتظرها من المسلسل، فالمسلسل في هذه الساعة أهم من المطر الذي تعودنا تساقطه منذ جئنا إلى الخرطوم، وخاصة بشهر أغسطس الذي دائمًا ما يحمل معه الأمطار الوفيرة.

وبمجرد انتهاء الحلقة اتجهنا أنا وإخوتي إلى الحديقة للعب تحت المطر الذي اشتد، فلم يخرجنا من ذلك سوى صوت الرعد المفزع، فجرينا مسرعين إلى الداخل خاصة أن الرعد قد اختلط بالبرق القوي، الذي نعرف أنه ربما يخطف الأبصار كما يصيب أحيانًا بصواعق كهربية، ورغم أنه لم يحدث ذلك أمامنا إلا أننا نعتقد ذلك، ورغم أننا قد سمعنا صوت الرعد مرارًا إلا أن قلوبنا دائمًا ما ترتجف كلما سمعنا صرخاته المدوية بالسماء، وبرغم اشتداد المطر أكثر وأكثر إلا أننا عدنا فرحنا لنلهو من جديد تحته مستمتعين بشدته، متجاهلين تحذير أمي وأبي من أن نصاب بالأنفلونزا، أخذنا نضحك ونجري على الممشى الأسمنتي في طريق الباب فاتحين أذرعنا محتضنين المطر الذي أنقذنا

من ذلك الحر اللعين الذي نكرهه بشدة، فالجو في هذا الشهر شديد الحرارة.

سكتت ضحكاتنا، بل وتبدلت بخوف مرسوم على وجوهنا حينما عادت السماء فصرخت صرخة رجت أنحاء البيت، فجرينا لنلتصق بأمي التي ربتت على ظهورنا قائلة:

- متخافوش أكيد المطر هيبطل دلوقتي وبعدين انتوا متعودين على صوت البرق، إيه الجديد؟

تظاهر نادر بأنه أصلًا لم يَخَفْ وأنه حينما جرى كان ذلك من أجل مرافقتنا للداخل، لا أعرف إن كان صادقًا أم لا، فأنا لم ألحظ وجهه في هذه اللحظات، فحينما جريت فقط أمسكت بيد منال التي نظرت إليها فوجدتها مرتعبة.

لم يتوقف المطر كما قالت أمي، بل اشتد واشتد وارتفع صوت طرقاته فوق كل ما بالحديقة وفوق سقف البيت، وظلت السماء تبعث لنا بصوت رعدي مخيف، وفي ذات الساعة انطفأت الكهرباء. انطفأت في جميع بيتنا، فازداد خوفي، بكيت ولكن في داخلي حتى لا تخاف منال أو حتى لا تزداد خوفًا، فقد كانت تبكي في حضن أمي.

يعود البرق فيضيء لنا المكان في لمحات، ثم يعود فيختفي ونبقى نحن في ظلام دامس.

بدأ القمر في الظهور رغم المطر، فجعل هناك شيئا من الضوء بالمكان.

بقي أبي وبجانبه أخي يتابعان المطر من حين لآخر، إما من

شباك الغرفة، وإما من فوق سلم (الفراندا)، والمطر لا يتوقف بل يزداد فيغطي درجات السلم واحدة تلو الأخرى، وقلبي خلال ذلك لا يتوقف أبدًا عن دقات وكأنها طبول الحرب، فقلبي يعلن الحرب على الخوف إلا أنه انهزم هزيمة ساحقة، فأنا لست فقط خائفة بل في حالة رعب، فكلما نظرت من النافذة وجدت الماء يرتفع حتى إنني أشعر أنه إذا ازداد الماء سيدخل علينا من النافذة.. سنغرق داخل هذا البيت.. إنه ليس بيتنا، فبيتنا هناك في مصر.

أقنعتنا أمي بأنه علينا بالنوم، وأن المطر حتمًا سيتوقف فلن يستمر إلى ما لا نهاية، ثم نامت بجانبنا على السرير، فغلبني النوم بسرعة رغم الخوف، فقد كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا ولم نكن معتادين السهر لهذا الحد.

نمت وأنا أمسك بيد منال التي لا أعرف إن كانت قد نامت قبل أن يغلبني النوم أم لا، ولكنها كانت إلى جوار أمي، وهذا سبب كافٍ يجعلها تشعر بالطمأنينة.

أما أمي فلم أكن أعرف إن كانت ستنام فعليًا أم أنها فقط كانت تشجعنا على النوم حتى نتخلص من لحظات القلق والخوف التي نحياها.

أما نادر وأبي فقد تمددا بجسديهما بجوار بعضهما البعض فوق السرير المقابل لسريرنا، فقد تجمعنا في غرفه واحدة.

استغرقت في النوم برغم كل شيء، ولم يوقظني سوى صوت رعدي قوي وقطرات ماء تتساقط على وجهي وملابسي.. بللتني، فوجدتني في ظلام كثيف لم أرَ من خلاله سوى شبحين أحدهما

جالس في المقابل والآخر على نفس سريري، فصرخت وأنا أقف محاولة الرجوع إلى الخلف مبتعدة، فجاءني صوت أحدهما: ما تخافيش يا حبيبتي، أنا ماما، تعالي.. تعالي.. اهدي.. فارتميت في حضنها، إنها أمي برائحتها المريحة لصدري، وبصوتها المطمئن لي دائما.

أخذتُ أبكي, وأخذت تتحسس شعري في حنان، وبالتالي استنبطت أن الشبح الآخر هو أبي حتى من قبل أن يتحدث.

لا أعرف قدر الوقت الذي نمته، ولكني لا زلت أسمع صوت المطر، ولكن صوته الآن أقل حدَّة من السابق، ومع ذلك سألت إن كانت السماء ما زالت تمطر أم لا، فأجابني أبي:

- لسه بتمطر يا حبيبتي، بس متخافيش هي خلاص قربت تبطل.

- بس كده البيت هيقع علينا.

- لا يا حبيبتي البيت متين.

- بس السقف اتشرخ وبينقط، يعني معناها أنه خلاص هيقع، وبعدين انت قولتلي قبل كده أنه من أيام الإنجليز، يعني من زمان جدًا.

- الإنجليز أسسوه كويس يا حببتي، وبعدين يا هالة السقف فوق مصمم بطريقة تخليه يطرد مية المطر من عليه تلقائي، إنتي مش شايفة انه مايل من قدام ومن ورا؟ ده علشان هما قبل ما يبنوا درسوا ظروف البلد دي.

- يعني هما كانوا عارفين ان المطر هيجي كتير قوي كده؟

- طبعًا، علشان دي مش أول مرة يحصل فيها كده.

- طب والكهربا لسه قاطعة؟

- أيوه يا هالة.

ثم قام أبي يفتح الباب لأرى ما لم أره من قبل، تحركت خلفه أنا وأمي، فقد رأيت بيتنا يسبح في الماء، فأنا لا أرى الأرض نهائيًّا، حتى الرياحين وأشجار الفل والورد اختفت تمامًا إلا أطرافها، أنا لا أرى سوى الأشجار المرتفعة فقط.

وَضَعَت أمي يدها على فمها قائلة: (الفراخ والبط هيموتوا).

قرر أبي أن ينقذ الطيور لأنها روح كما قال، وليس لها ذنب فيما يحدث، فخلع عنه (بيجامته) وأعطاها لأمي وتحرك بالفانلة والشورت بادئًا الغوص في الماء, كنت قلقة جدًّا على أبي:

- ما تروحش يا بابا مش مهم.

- حرام يا بنتي.

- هتغرق.

- متخافيش يا هالة.

نزل أبي إلى الحديقة متحملًا استمرار المطر، والماء الذي غطى أكثر من نصفه، وظل يدفع الماء دفعًا إلى أن ذهب وأدى ما كان يريد أداءه وعاد إلينا مطمئنًا أمي بأنه قد وضع لهم طاولة مرتفعة قديمة كانت بالحديقة الخلفية حتى يقفوا عليها

بعد أن ساعدهم على ذلك.

اطمأنت أمي لذلك، ثم جاءت له بملابس جافة كي يستحم، لكنه حينما دخل إلى الحمام وجد الماء منقطعًا أيضًا فاكتفى بتبديل ملابسه دون استحمام.

جلست بجانب النافذة، القمر بدر هذه الليلة، عالم بما نحن فيه من ظلام، عاطف علينا.

متى سيتوقف المطر؟ متى ستنتهي هذه الليلة الطويلة جدًّا؟

أسئلة كثيرة ظللت أسألها، ولكن لنفسي هذه المرة، إلى أن توقف المطر أخيرًا، وتوقف أيضًا صوت الرعد وضوء البرق.

كل شيء توقف في لحظات متتالية، حتى ساد الهدوء، الهدوء الذي أمدنا بالطمأنينة التي كنا نحتاجها، فنمنا بعمق نومًا هادئًا كنا نحتاجه أيضًا.

الفصل العاشر

لا أدري إن كانت الطيور تغرد أم تبكي أعشاشها التي دمرت، ولكنها تصوِّت أصواتًا مختلفة تبدو واضحة مع اختفاء صوت مراوح السقف.

أيقظتني أصواتها من نومي العميق، لم أجد أحدًا معي بالغرفة، فأصوات الأسرة جميعها بالفراندا وكأنهم يتناولون طعام الإفطار، فجريت إلى الخارج مسرعة لأرى ما قد حدث بالحديقة، فلم أجد بحر الماء الذي كان في ليلة الأمس، ولكن الحديقة اليوم ترتدي ثوبًا جديدًا مبهرًا، فجميع النباتات قد اغتسلت بالأمس فبدت ألوانها الخضراء متفاوتة الدرجات زاهية مع نور الصباح الذي كنت بانتظاره.

ذلك ما جعلني أقول بصوت عالٍ: (الله)!

فانتبه الجميع إلى استيقاظي، فدعوني للإفطار معهم.

- أُمَّال فين المية اللي كانت امبارح في الجنينة، ولا أنا كنت بحلم؟!

رد قائلًا: الميه اتسربت من تحت الباب. قلت متعجبة:

- مش ممكن!

فاتجهت إلى الباب فوجدت الكثير ممن الأشياء أمامه، قطعة خشب كانت ملقاة بالحديقة.. فردة شبشب.. كرة.. لعبة نسيناها.. حتى جردل الماء الذي يستخدمه إدريس، وطست الغسيل الذي يستعمله يوسف، أشياء كثيرة أخرى قد صنعت سدًّا أمام الباب، فقد اندفع الماء من تحت الباب دافعًا كل ما يقف في طريقه.

ولكن لم تَخْلُ الحديقة تمامًا من الماء، فقد أصبحت هناك تجمعات للماء في أماكن متفرقة رأيتها بعينيَّ - حتى دون تجول- في هذا الجزء الأمامي للحديقة، فصنعت هذه التجمعات بحيرات صغيرة، وأظن أن السبب هو أن هذه الأماكن منخفضة إلى حد ما، ويبدو ذلك واضحًا على جانبي البيت غير المزروعين بالحشائش، فتبدو البحيرات الصغيرة واضحة جدًّا.

عدت فتناولت الإفطار بسرعة استعدادًا لفتح الباب، وقد طلبت من أبي ألَّا يفعل ذلك إلا بعد أن أفطر فأعاونه هو وإخوتي في ذلك، فكلنا تشوق لرؤية ما خلف الباب وكيف أصبح الشارع.

تناولت الإفطار دون كوب الشاي بلبن الذي تعودت شربه كل صباح، فالكهرباء لم تأت بعد، ونحن لا نستخدم سوى السخانات الكهربية في إعداد الشاي وطهي الطعام حيث لا يوجد بوتاجاز بوفرة لاستخدامه في الأساس، بيوت الري المصري كلها مجهزة بسخانات كهرباء للمطابخ وليس بوتاجازات.

والمشكلة الأكبر أن الماء أصلًا غير موجود، فقد انقطع الماء منذ ليلة أمس ولم يلفظ الصنبور بقطرة ماء بعد.

فالآن لا ماء ولا كهرباء ولا حتى هواء، فالجو حار جدًّا وشمس السودان قاسية كعادتها حتى في باكورة الصباح.

تعاونًا جميعنا في إبعاد ما تجمع أمام الباب.

انفتح الباب بيد أبي، فوجدنا حال الشارع لا يختلف كثيرًا عن حال البيت، فهو خال من الماء إلا من بعض التجمعات التي تشبه البحيرات أيضًا ولكنها أكبر من بحيرات بيتنا الصغيرة نسبيًّا.

مر النهار بحره الشديد، ثم مر الليل بظلامه الرهيب، وقد أتانا أبي نهارًا بعد صلاة الجمعة بالماء الذي يكفينا لهذه الساعات من مكان بعيد، كما أتى بدستة شموع لاستخدامها حينما نحتاج الحمام فقط، نظرًا لصعوبة الحصول عليه.

أتى نهار السبت ولم تأت سيارة المدرسة، فقد تأجلت المدرسة إلى أجل غير مسمى كما سمعنا من الراديو، الذي كان أبي قد اشترى له بطاريات للاستخدام وأخرى للاحتياط منذ أسبوع، نظرًا لأنه يحب الاستماع إلى الراديو فيأخذه معه في أي مكان يجلس.

ذهب أبي إلى عمله بعد أن ذهب مع أخي إلى نفس المكان البعيد الذي ملأ منه الماء بالأمس، فمن الواضح أنها ستصبح عادة يومية له رغم الطوابير الطويلة للحصول على الماء في هذا المكان.

عاد أبي من عمله بأخبار مؤكدة بأن المدرسين سيعودون إلى مصر، وأن موظفي البعثة التعليمية من أراد ذلك، وأساتذة

الجامعة أيضًا سيعودون، ونسبة كبيرة من موظفيها، ذلك ما فهمت من حديثه، أما موظفو الري المصري ومهندسوه فلا يمكنهم ذلك، فعلى المهندسين بالري متابعة ارتفاع منسوب المياه، أو قياسه أو.. لا أدري، لم أفهم أكثر من ذلك، وبالتالي فوجود المحاسبين أمثال أبي ضروري، وكذلك العمال والسائقين وغيرهم.

أصابنا ذلك بالإحباط، فلا عودة كغيرنا من الأصدقاء والصديقات، ولكن سنبقى دون ماء ولا كهرباء، فلا مسلسل الثامنة ولا برنامج الخامسة والنصف للأطفال.

طهت أمي لنا الطعام على (كانون الفحم) بدلًا من السخانات الكهربية، بل وطهت جميع اللحوم التي (بالفريزر)، كل ذلك كان بالأمس بعد أن أصبحت الثلاجة غير قادرة على الاحتفاظ باللحوم ولا حتى الطعام باردًا، وأصبحت عملية إشعال الفحم وتسخين الطعام كل عدد ليس بكثير من الساعات أمرًا إجباريًّا حتى لا يفسد الطعام، أكلنا منه بالأمس غداءً وعشاءً كما سنأكل منه اليوم كما علمتُ، ولا مانع من الأكل منه غدًا و بعد غدٍ وبعد ذلك, حتى وإن كان عن غير طيب خاطر، فلا يجوز لنا إلقاؤه كما قالت أمي (محدش عارف بكرة مخبيلنا إيه)، غير أنه في ظل ما ليس موجودا من الكثير مما نحتاج نحن وغيرنا من طعام، فيجب علينا أن نقنع ونستشعر لذة هذا الطعام حامدين الله شاكرينه أن أوجد لنا هذا الطعام في ثلاجتنا قبل حدوث ذلك الفيضان.

كان أجمل ما شاهدناه في فترة ترفيه الطيور التي اعتادت

عليها أمي، بل وعودت عليها الطيور، مشهد البطة الأم التي أخذت خلفها أبناءها صغار البط ليستحموا في إحدى بحيرات الماء التي تكونت في أحد أركان البيت، فكان الصغار يسبحون خلف أمهم في طابور منظم بشكل رائع يجذب الأنظار، فجلست أبتسم من فرط إعجابي بهذا المشهد وبجانبي إخوتي، وأتعجب من تقليد الأبناء لأداء أمهم في بعض الأمور كغسل الرأس بالماء وتنفيض الماء عن الريش بنفس الطريقة.

أما ذلك الكتكوت الوحيد الذي وقف يصرخ فهو بطبيعته لا يعرف السباحة، ظل يلف ويدور حول البحيرة وكأنه يناديهم وكان يظن أنها أمه حيث كان منذ أيام بيضة ضمن البيض الذي كانت ترقد عليه البطة الأم وأظن أنها أحست أنه ابنها أيضًا، فعادت إليه، فقفز في رشاقة فوق ظهرها وعادت به إلى السباحة مرة أخرى ومن خلفها أبناؤها حتى أتم نزهته، وأعادته إلى البر مرة أخرى حينما أخبرها ببضعة أصواتٍ قد أصدرها بطريقة ما فهمتها هي لا أعرف كيف!

مرت أيام خمسة ونحن على نفس حالتنا، إلا أن الماء قد عاد إلى الصنابير، ولكنه كان لا يختلف كثيرًا في لونه عن لون الكاكاو، فأضاف ذلك مهمة أخرى لمهمات أمي وهي غلي الماء ثم ترويقه مرة، ثم مرة أخرى، ثم ثالثة لاستخدامه في الاستحمام، حيث إنه لا يصلح إلا لذلك، أما ماء الشرب فإحضاره من الأماكن البعيدة كانت مهمة أبي وأخي الدائمة.

فكانت حياتنا على ضوء القمر ليلًا، ونور الشمس نهارًا، لننام بعد العِشاء، ونستيقظ فجرًا، وأنا أسأل نفسي كل ليلة قبل

المنام:

لماذا نحتمل كل هذا العناء؟ ولماذا لا نعود إلى مصر؟ فكلما سألت أبي قال لي إنه لا يمكننا ذلك.

ومع ذلك فنحن في نعيم كما يقول إدريس؛ لأن الماء الذي تسرب من تحت أبواب بيوتنا قد اتجه إلى مناطق أخرى أقل ارتفاعًا من منطقتنا السكنية، فتهدمت بيوت، وغرقت بيوت، وأصبحت الشوارع عندهم عبارة عن مستنقعات قد صارت بعد ذلك سببًا في نقل الأمراض بل وموت الكثيرين، فالإنجليز قد صنعوا مجاري للماء على جانبي كل شارع للتغلب على آثار المطر السلبية، ولكنهم لم يصنعوا شيئًا للفقراء فتركوهم للأقدار.

جرى (نادر) باتجاه الباب بعد سماعنا لطرقات أناس كانت أمي بانتظارهم، وحينما فتح الباب أصابني الرعب ولكني كعادتي تظاهرت بالتماسك. فهو الطبيب ذو البالطو الأبيض، والممرضة وترتدي زيًّا أبيض هي الأخرى، ومعهم شخص ثالث لا يرتدي مثلهم ولا أعرفه ولكن يبدو أنه هو دليلهم للبيوت وعدد سكانها.

تحمل الممرضة صندوقًا بلاستيكيًّا كبيرًا إلى حد ما.

رحبت أمي بهم، فهم مبعوثون من السفارة المصرية لتطعيم جميع المصريين المتواجدين بالخرطوم.

وضعت الممرضة الصندوق فوق الطاولة، ودعتنا جميعًا للوقوف أمام الطبيب، فتواجدنا، إلا أنه حينما فتح الصندوق

ووجدنا ثلوجًا بوسطها زجاجات صغيرة جدًّا جدًّا أخذ الطبيب إحداها وأخرجت له الممرضة من جيبها حقنة، بدأت أقدامنا تتراجع بخلاف أختي التي جرت بالحديقة، فأشارت أمي لإدريس الذي جرى وراءها حتى تمكن من الإمساك بها وإحضارها وهي تصرخ وتضرب فيه، فقد كان يحملها على كتفه، وكنا قد تم حقننا بالفعل وتماسكت أنا وأخي نادر، برغم أن الحقنة كانت حارقة جدًّا.

أمسك إدريس جيدًا بـمنال، وأمسكت أمي ذراعيها بطريقة تتيح للطبيب أداء عمله، والذي لم يُخْفِ ضيقه من صراخها وتحريكها ليديها وضربها بقدميها في الهواء حتى لا يتمكن من إعطائها الحقنة.

تمكن أخيرًا من ذلك متحملًا عضة قد وجهتها منال لذراعه. اعتذرت له أمي أثناء ذهابه إلا أنه لم يرد عليها وذهب، وهو يفرك ذراعه بيده.

أما أبي فقد أخذ حقنة التطعيم في العمل.

قال إدريس إننا محظوظون، فالسفارة قد اهتمت بتطعيمنا، أما هم فتنتقل للضعفاء منهم الأمراض، فالمناطق التي غرقت هي للفقراء، وأما البلدان التي غرقت فهي للقرويين البسطاء ولا يوجد عندهم خبز ولا حتى دقيق، فإما أن يموتوا مرضًا أو يموتوا جوعًا.

فقلت له إننا أيضًا لم نتحصل على رغيف خبز واحد، فقط صنعت لنا أمي الخبز من (شوال) دقيق كان عندنا قبل الفيضان ولا زالت تصنع لنا منه بطريقة غريبة على صاج تضعه فوق

كانون الفحم لأنه لا توجد كهرباء لتشغيل الفرن الكهربي.

(صحيح أنه ليس كالخبز الذي تعودتم أكله، لكنه خبز) هكذا قال لي إدريس.. انسحبت من أمامه متجاهلةً تلك النظرة التي في عينيه موجهة اهتمامي إلى أمل صديقة منال الجديدة، والتي جاءت أو أرسلتها أمها (طنط نبيلة) بعد سماعها صراخ منال غير العادي، وقد علمت سببها حينما نظرت من فوق السور ورأت إدريس أثناء جريه وراء منال.

فأمل برغم أنها صديقة منال منذ أيام ليست بكثيرة، إلا أنها تستطيع تهدئتها، ومجيء أمل إلينا يعد أساسًا نزهة لها، فليس لها صديقات هنا بالخرطوم.

أمل حفيدة عم حمزة، ابنة بنته نبيلة، نبيلة بنته من زوجته المصرية، والتي كانت تقيم بمصر مع زوجها السوداني، إلا أنها قد انفصلت عنه منذ تسعة أشهر، ثم أقامت مع أمها وأخواتها الثلاثة اللاتي لم تتزوجنَ في بيتهم الصغير ذي الغرفتين وصالة.

ولأنها لم تستطع أن تجد عملًا مناسبًا، ولأنها أم لأمل وأحمد، فقد قررت أن تجيء إلى بيت أبيها، وعليه أن يتحملها بأبنائها، وعليها هي أن تتحمل زوجته عواطف بحدَّتها معها ومع أبنائها.

فقد جاءت قبل بداية الدارسة بأسبوعين، وكانا كافيين لأن تكون أمل صديقة لأختي أولًا ثم لي، فهي في نفس عمر أختي، حتى إنها معها بنفس الفصل بالمدرسة، أما أخوها أحمد فقد كان صغيرًا بالصف الأول الابتدائي.

حمدنا الله أن منال جاءت أمل في هذا التوقيت بالذات، فقد

خففت من قسوة الوقت، فقد كانت تجيء إلى منزلنا يوميًّا لتلعب مع أختي وتحكي لنا ونحكي لها باللهجة المصرية، فهي تتكلم بنفس لهجتنا المصرية.. (ياه الحمد لله).

انتهى العام الدراسي بامتحانات بسيطة أرسلوها إلينا من مصر تقديرًا لما عانيناه على ما أظن، وذلك بعد مضي شهور عادت بها الحياة تدريجيًّا إلى طبيعتها.

فبعد أسبوعين عادت الكهرباء، فعدنا إلى مشاهدة التليفزيون، مسلسل الثامنة مرة أخرى، ومن قبله برنامج الكرتون الوحيد، عدنا إلى طهي الطعام على السخانات الكهربية، إلى كي الملابس بالمكواة، إلى السهر إلى منتصف الليل في يومي الخميس والجمعة، إلى إضاءة المنزل ليلًا، وأصبح انقطاعها أثناء رياح الهبوب أمرًا عاديًّا لا يؤلمنا.

وأصبح الماء ينزل عاديًّا من الصنبور، فعاد المدرسون وغيرهم، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه حتى انتهت اليوم امتحاناتي وامتحانات (نادر) معًا، ومن قبلها امتحانات منال.

- أخيرًا خلصت امتحاناتي الحمد لله!

قلتها بمجرد دخولي البيت ملقيةً ورائي بورقة الامتحان.. الامتحان الأخير لهذا العام.

الفصل الحادي عشر

بعد انتهاء المرحلة الإعدادية بدأت مرحلة جديدة لم أنتقل خلالها إلى مدرسة جديدة، فالكلية القبطية ما زالت مدرستي حتى وإن تغير لون "الجيب" من الكحلي إلى الرمادي, وكما اختلط الأبيض بالأسود لإنتاج ذلك الرمادي الذي لا أحبه، فقد اختلطت بداخلي أشياء كان نتاجها شعوري بالضيق, فمعظم ما بداخلي يدفعني للكبر، خاصةً حينما أنتبه إلى ظاهري, فأنا لا أطيق تلك الحبوب التي تناثرت على وجهي، كما أكرهُ أن تضيق على جسدي ملابسي التي كنت أرتاح إلى ارتدائها.. أكره أن تدفعني أشياء بعينها إلى الكبر، فأنا كبيرة من قبل.. أعتني بأختي... أحممها وأمشط لها شعرها، وأكون بجانبها حينما تشعر بالخوف، بل أخاف عليها.. كما أساعد أمي قدر ما أستطيع.

إنني أخجلُ من كل ما طرأ على داخلي وخارجي.. أنطوي على نفسي كلما سنحت لي فرصة, وخلال جلستي مع نفسي وتأملي بمشاعري طرقت الباب يد صديقتي التي كنتُ بانتظارها (ولاء حمدي) صديقتي المصرية، وكان معها (أسامة) أخوها الذي يكبرها بثلاثة أعوام، فهو بالفرقة الأولى بكلية التجارة

جامعة القاهرة، فرع الخرطوم.

لم يكن مجيء أسامة غريبًا هذا اليوم، وإنما متوقعًا، فدائمًا ما يجيء مع أخته موصلًا إياها خوفًا عليها من مخاطر الطريق الذي لم يكن طويلًا أصلًا.

لذلك نظرت أولًا بالمرآة فتأكدت من حسن مظهري ثم جريت لأفتح الباب.

سلمت على ولاء بحرارة رغم أنها كانت معي بالمدرسة صباحًا، بل كانت بجانبي بالفصل.

سلم عليَّ أسامة بهدوء وبشكل عادي كالمعتاد، وككل مرة أطلب منه أن يتفضل بالدخول فرفض، ثم ذهب غير ناظر خلفه.

هناك شيء بداخلي يتحرك أو يتغير كلما رأيت أسامة أو سمعت صوته، أو حتى اسمه، يزداد هذا الشيء كلما تحدثت عنه ولاء، فتضطرب دقات قلبي وقتها، وأحاول إخفاء ابتسامة تجاهد في الارتسام على وجهي متحدية كل الموانع.

أتمنى دائمًا أن تتحدث ولاء عن أسامة، بل إني أحيانًا أفتعل موضوعًا يسمح لها بالتحدث عنه.

ما يحدث بداخلي لا أفهمه، ولا أعرف اسمه، ولكنه حلو.

ولاء بيضاء البشرة ذات جسد نحيل إلى حد ما، وكانت شديدة الاهتمام بمظهرها.

وقفت أمام المرآة كعادتها كلما جاءتني لتتأكد من أن تسريحة شعرها لم تصب بسوء، بل أخذت مشطي لتغير تسريحة شعرها

بعد حضورها بدقائق، وحتى قبل أن نفتح كتبنا، فهي دائمًا سعيدة بذلك التغير الذي يحدث لها، ولا تؤرقها تلك الحبوب التي ظهرت في وجهها.. تحب الملابس الضيقة التي تلفت الأنظار إليها، بينما أختبئ أنا في ملابسي الواسعة التي يمكنها أن تُخبئ كل جديد طرأ على جسدي، خاصةً أنني لست بنحيفة ولا قصيرة.. هي لا تحب ملابسي ولا اختبائي بداخلها, ولكنها تحبني كثيرًا.. تحب صُحبتي... تحب استماعي لحكاياتها عمَّن غازلها, ومن أرسل لها بخطاب, ومن ترك لها صورته وعلى ظهرها اسمه, ومن طلب منها أن تقابلهُ بعد المدرسة ولكنها رفضت, وأنا أيضا أحب حكايات ولاء.. أحب وجودها معي.. استذكارنا للدروس معًا.. أحب كونها بجانبي في الفصل.

أخذنا وقتنا في استذكار دروسنا، تخلل هذا الوقت وقت للحديث والضحك، وآخر لشرب العصير الذي أعدته لنا أمي.

ثم ذهبت (ولاء) تاركة لي الجديد كعادتها، فهي دائمًا مرجعي فيما لا أفهم. إنها تعلم أكثر مني وتفتخر بذلك، فتلفت انتباهي دائمًا إلى ما لا أعرف متفاخرةً بمعلوماتها، فهي قريبة جدًّا من أمها، فتخبرها دائمًا بما لا تعرف مما يخص المرحلة العمرية التي نمر بها، على عكس أمي التي لا تفعل ذلك، فهي تتفادى الحديث معي في هذه الأمور بالأمور الحياتية اليومية العادية، واضعة ذلك الحاجز بيني وبينها، والذي يرتفع يومًا بعد يوم.

كان أسامة في انتظارها بالخارج، فلم يدق الجرس هذه المرة، فقد كانت تعرف ميعاد حضوره المتفق عليه بينهما.

سلمتُ عليه قولًا، فأومأ برأسه وذهبا، ولم ينظر وراءه حتى

حينما نظرت هي إليَّ مشيرةً بيدها.

مرت شهور جاء خلالها أسامة ثم ذهب، ثم جاء ثم ذهب، ثم...

ولكنه لم ينظر وراءه في أيٍّ من المرات.

انتهى العام الدراسي بمضي ما سبق من شهور، وانتهت مدة عمل والد ولاء كموظف بالجامعة، فسافرت ولاء أعز صديقاتي في هذه المرحلة، وسافر أسامة، وسافرت معه جميع المشاعر التي كنت أشعر بها كلما رأيته.

كانت ولاء قد أخبرتني قبل سفرها أنه سعيد بعودتهم، فهو يحب إحدى جاراتهم في مصر، فتحول الحلو إلى مر وذبل ما بداخلي من مشاعر زاهرة. ولا أعرف كيف تحول كل ما كان جميل بداخلي إلى شيء يجعلني دائمة الحزن، دامعة العين كلما بقيت وحدي.

ألم يشعر يومًا بتلك الأشياء الحلوة التي كنت أشعر بها حينما أراه؟!

نهايةً، فقد ذهب (أسامة) ولن أراهُ ثانية.

وكان عليَّ أيضًا أن أخبئ كل ذلك بداخلي، وأن أتظاهر بأني لا بأس بي ولا حزن، خاصة أمام أمي التي انتبهت إلى عينيَّ الحزينتين وفقدان شهيتي للطعام.

ولكنها صدقتني حينما أخبرتها أن سبب ذلك هو سفر ولاء دون عودة، وفعلًا كان ذلك قاسيًا جدًّا على نفسي، فقد شعرت

بقدر من الوحدة لم أشعر به من قبل، فولاء صديقة العامين السابقين المصرية المقربة إلى قلبي.

وقد أبعدني عنها الآن ذلك الجلاد الذي يُدعى السفر, قالت لي أمي:

- خلاص أبوكي حجز التذاكر وهنسافر مصر قريب وهناك هتنسي موضوع الوحدة ده.

رضيت عن كلامها بإيمائه من رأسي فأكملت:

- النهارده جاية سميحة جارتنا وولادها محمد ووليد، واهو نتفرج ع المسلسل مع بعض.. النهارده أول حلقة من المسلسل المصري الجديد، الحمد لله أن المسلسل الأردني خلص مكنتش بفهم منه أي حاجة أصل كلامهم صعب أوي.

كانت أمي تحاول إخراجي من هذه الحالة بطريقتها.

جاءت طنط سميحة ومعها وليد ومحمد بعد أذان العشاء، وليد ومحمد كإخوتنا فقد تربينا معًا خلال ثلاث سنوات سابقات.

كانت أمي قد أخرجت التليفزيون إلى الفراندا فوضعته فوق الطاولة وصفت الكراسي بجانب بعضها، وأعدت الكيك، ووضعت غلاية الشاي فوق السخان.

كل ذلك فعلته قبل حضور طنط سميحة. فسخان الكهرباء بطيء جدًا في التسخين، كما أنها أحبت أن تعد الكيك مسبقًا وتصف الكراسي حتى تتفرغ تمامًا للجلوس معها والاسترسال في قص الحكايات.

جلست أمي وطنط سميحة بادئتين حكي الحكايات، وأخذنا أنا ونادر ومنال ومعنا محمد ووليد نتمشى بالحديقة حتى جاء ميعاد المسلسل، فأسرعنا للجلوس على الكراسي المتراصة أمام التليفزيون كل يحاول أن يسبق الآخر لاختيار موقع أفضل في الرؤية، وجاء من نصيبي ذلك الكرسي الأخير بطرف الصف، غير المرغوب فيه، حيث إنني كنت أقل منهم سرعة فجلست عليه برضًا، وكان محمد يجلس على الكرسي المجاور للكرسي الذي أجلس عليه.

بدأ المسلسل وساد الصمت إنصاتًا للمسلسل الذي ننتظره بفارغ الصبر، مسلسل مصري جديد لم نره من قبل.

بعد دقائق قليلة أشارت إلى أمي بالذهاب إلى الداخل دون أن تتكلم، ويبدو أنها كانت لا تريد أن يلحظ ذلك أحد، وفعلًا لم يحدث.

فدخلت إلى الغرفة، فجاءت ورائي وبمجرد التفاتي إليها صفعتني على وجهي صفعة أوقعتني أرضًا.

وضعت يدي على خدي مذهولة دامعة العينين لا أدري لماذا فعلت أمي ذلك، فقالت هي:

- يا سافلة يا قليلة الأدب، في بنت متربية تقعد جنب ولد؟

ثم تركتني وخرجت دون أن تعطيني فرصة الرد على سؤالها.

محمد ذلك الذي يكبرني بعامين، أخو (وليد) الذي يكبرني بعام واحد، وهو في نفس عمر نادر تقريبًا.. كنا من قبل نلعب معًا.. كلنا كنا نفعل ذلك، كنا نلعب الدومينو، وبنك الحظ،

والكوتشينة.

صحيح أنني دائمًا ما كنت أجلس بعيدًا أثناء اللعب، فقد كنت دائمة الخجل، غير أنني البنت وهم الأولاد.

إلا أنني لا أشعر أبدًا بشيء يتحرك بداخلي عندما أرى محمد أو أسمع صوته.. لا شيء بداخلي تجاه محمد.. فلماذا فعلت أمي ذلك؟ ليتك لم تسافري يا ولاء! ليتك تترجمين لي ذلك التصرف الوارد من أمي، فما الذي تغير وغيرَها كي تصفعني تلك الصفعة التي أصبحت فيما بعد سدًّا مانعًا لأن تعبر من خلاله مشاعري تجاه محمد، حتى وإن كانت مشاعر عفوية لا تحمل أكثر من الود أو حتى المجاملة.

الفصل الثاني عشر

انتهت فترة انتداب والدي، وقد فشل في محاولة البقاء لمدة أخرى، فكان علينا العودة إلى مصر، فهناك أشياء هامة تنتظرنا بالقاهرة، أولها الثانوية العامة بالنسبة لأخي، ومحاولة توفير المناخ المناسب له حتى يستطيع الحصول على مجموع كبير يؤهله للالتحاق بكلية من كليات القمة.

ثم حلم في طور التحقق بعدما ادخرت أمي مبلغًا تظنه كافيًا للحصول على شقة كبيرة في حدائق القبة، ولكن بشارع من شوارعها الواسعة مبتعدين عن شارعنا الضيق الذي يحاول الانتماء إلى حدائق القبة المنطقة العريقة منذ أن خَطَا الملك فاروق بأقدامه فوق شوارعها، وحتى ترك العظام آثارهم بها، المشاهير منهم وغير المشاهير.

فقد سكنها، أو زارها الكثير من الممثلين، نظرًا لوجود استوديو جلال بها. وأيضًا معظم رجال الدين المشاهير، ومن قبل ذلك كله رجال الدولة المقربون للملك فاروق، كلهم تركوا بيوتهم، ولافتات بأسمائهم بشوارع حدائق القبة.

ذلك ما جعل حلم أمي منحصرًا في شوارع حدائق القبة،

أما أنا ومنال فقد كان حلمنا هو وجودنا بمصر، فقط وجودنا بمصر.

ذلك رغم أننا سنفتقد صديقتينا السودانيتين، فسيبعدني السفر أيضًا عن رشا الصديقة السودانية الأقرب إلى قلبي، والتي كانت تشاركني بالحديث بجلسة (الونسة) بعد انتهاء اليوم الدراسي، فقد كانت تحب القراءة والاطلاع، فكان حديثها مختلفًا عن حديث ولاء، ولكنا كنا نجلس ثلاثتنا نكمل بعضنا البعض بأحاديثنا المختلفة، وطباعنا المختلفة، فتتميز رشا بأنها تجيد اللهجتين السودانية والمصرية لأن والدتها مصرية.

طرقت رشا الباب، وبعدها بساعة طرقت دلال نفس الباب.. دلال صديقة أختي منال خلال سنوات خمس سابقات.

كان يومًا حزينًا ذلك الأخير في السودان، جلسنا بالحديقة أربعتنا.

لففت أنا ورشا حول البيت بالحديقة فسقيت بيديَّ كل نبتة، وشممت كل زهرة قريبة فوق الشجر.

صعدت على الكرسي بجانب السور فنظرت إلى ذلك القرد في بيت عم حمزة، الذي طالما ضايقناه مطمئنين أنه مسلسل، فألقيت إليه بحبتين من الفول السوداني الذي كان بجيبي فالتقط واحدة بين يديه وأخذ يقشرها استعدادًا لتناولها، وبعدما أكلها تناول الأخرى بنفس الطريقة ثم أخذ يتحرك حركات شقية بخفة معهودة ينظر إليَّ خلالها بين لحظة وأخرى.

أردته أن يحبني حتى وإن كنا في ساعاتنا الأخيرة في هذا

البيت، وربما تكون نظرتي الأخيرة إليه، لكني فقط أردت ذلك.

لم أرَ أمل، حيث إنها كانت قد سافرت إلى مصر مع أمها وأخيها لزيارة جدتها، نزلت من فوق الكرسي عائدة إلى حديثي مع رشا التي كانت تنتظر انتهاء حديثي مع القرد.

تحدثنا كثيرًا هذا اليوم، ثم تركت لها ورقة بعنواني ورقم تليفوني بالقاهرة، كما تركت لها هي الأخرى ورقة بعنوانها وتليفونها بالخرطوم.

تناولنا الغداء معًا، فهذه آخر وجبة غداء لنا بالخرطوم، فسعدت بأنني قد تناولتها مع رشا ودلال ومنال، فدلال بنت تتميز بطيبة قلب تجعلني أحبها.

أغلقت أمي الباب معنا خلف صديقتينا اللتين قد خرجتا مع بعضهما البعض من منزلنا بدموعهما الصادقة. بعد أن احتضنتهما قائلة: (مع السلامة يا بنات متقطعوش الجوابات عشان نطمن عليكم، هتوحشونا والله).

حبيبتي يا رشا، قد ذهبت مروج، وألفت، ومن بعدهما ولاء، واليوم سأذهب أنا وستبقين وحدك يا حبيبتي.

كنت حزينة من أجل وحدة رشا بعد سفرنا، ولكن كان هناك أمل بداخلي أنني سأرى رشا بمصر؛ كون أمها مصرية، وكان هناك نفس الأمل بالنسبة لمنال تجاه دلال كون جدتها لأبيها كانت مصرية، وهي تعرف أنها وأهلها يسافرون كل عامين إلى مصر لزيارة من يعرفونهم في الأهل، وللاستمتاع بإجازة صيفية سعيدة، وللتباهي أيضًا وقص الحكايات عما شاهدوه في مصر.

قد كان نادر في هذا الوقت خارج البيت لتوديع أصدقائه الذين لا يمكن حضورهم إلى بيتنا؛ كونهم بنين ونحن بنات كما كان دائمًا يقول أبي، بل وعوَّده على ذلك.

بدأت في تحضير الحقائب مع أمي، فتذكرت مروج وألفت، فسفري هذا يجعلني أفقد الأمل في رؤيتهما للأبد، بخلاف وجودي هنا الذي كان يبعث بداخلي إحساسًا بأنهما قد سافرا لعام واحد فقط، وأنهما سوف تعودان مرة أخرى لمدرستنا، خاصة بعد ما جرى في بلديهما.

كان يومًا من أيامنا الدراسية في بداية العام الماضي، وصباحًا كأي صباح بالنسبة لي، فليس به إلا خبر قد سمعناه بالراديو، أن الجيش العراقي قد غزا الكويت.

ذهبت إلى مدرستي فقابلت أول ما قابلت (ألفت) الكويتية، التي لم تكن تكف عن البكاء وقتها، فتخشى أن يكون قد أصاب جدتها وجميع أقاربها مكروه متعجبة كيف كان هذا، ولماذا؟

كنت أحاول تهدئتها بكلمات تشعرها بالاطمئنان وبأحضان الصديقة مخفية دموعي، لكني لم أستطع الرد على سؤالها.

وحينما قابلت مروج العراقية وقد كانت جالسة بأحد الفصول وحدها، وجدتها أيضًا تبكي فحبيبها الذي لم تخجل يومًا من قول إنها تحبه وهى في هذا العمر، كان مجندًا بالجيش، ولا تعرف إن كان مع هؤلاء الذين اقتحموا الكويت أم لا.

كان ابن عمها الذي كلما تحدثنا تحول حديثنا لا إراديًّا إلى سيرته، فهو صديق العمر وعريس المستقبل، فقد قرأ أهلهما

الفاتحة منذ كانا صغيرين متفقين على أن يكونا لبعضهما حينما يكبران.

مروج أيضًا كانت تسأل:

- لِمَ كان هذا؟

وحينما بدأت الحصة الأولى، كانت أحلام زميلتنا المصرية في حالة بكاء هستيرية بعد أن أتت متأخرة في هذا اليوم، حتى إن المعلم لم يستطع أن يكمل شرح الدرس متأثرًا بحالتها فترك الفصل وذهب.

كانت تبكي خوفًا على أخيها الذي يعمل بالكويت منذ العام الماضي بعد حصوله على بكالوريوس التجارة، ورغم أن أباه كان عاملًا بسيطًا في هيئة مياه النيل المشتركة إلا أنه جاهد حتى حصل له على عقد العمل الذي كان يظنه سيجعله مرتاحًا بقية حياته.

لم أنْسَ أبدًا هذا اليوم ولن أنساه؛ فقد كان سببًا في حزن صديقتيَّ، إلا أنه لم يكن سببًا في بغضهما لبعضهما رغم أنه كان عامًا لم يَخْلُ أبدًا من المشادَّات بينهما من حين لآخر، إلى أن رحلا دون سابق إخبار لي أو لأي من صديقاتهما الأخريات، فقد بدأ العام الدراسي الأخير بدونهما وافتقدتهما رفيقتين في النادي وصديقتين في المدرسة.

لم أكن أعرف أنني لن أودعهما حينما يذهبان إلى بلديهما، ولم أكن أتصور أنني سأغلق حقائب سفري دون إخبارهما بذلك.

ذهبنا إلى المطار ليلًا كمعظم رحلاتنا السابقة إلى القاهرة.

بداخلي رغم ارتياحي لعودتنا حزن، فمشهد إغلاق الباب الحديدي لا زال أمام عيني وصوت إغلاقه لا زال في أذني، ومشهد البيت داخليًّا بعد أن صار بلا ملاءات للسرير ودون أدوات للمطبخ، ودون (الشباشب) أمام الحمام، ودون ملابس بالدواليب، ودون جهاز التليفزيون، ثم دوننا حينما تركناه، كل ذلك جعلني أشعر أننا قد خذلناه، فتركناه بعد أن اعتاد وجودنا.

أما رائحة الورود والرياحين فقد أخذتها معي، في صدري، أستطيع استعادتها كلما اشتقت إليها. ركبنا الطائرة بعد انتهاء الإجراءات، فتذكرت المرة الأولى التي ركبتها بها وقد كنت صغيرة، فابتسمت رغم أي شيء أشعر به.

ودعت مطار القاهرة كما ودعت مسبقًا مطار الخرطوم، ودعته بنظرات خلفية من زجاج السيارة الخلفي، فأنا أعرف جيدًا أنني لن أحضر إلى هنا مرة أخرى.

صارت القاهرة تحت قدمي, وأحضان شارعنا من حولي, وسماؤها تبعث إلي بنسيم يمتزج بما في داخلي من عبير الزهور الذي بصدري.

استقبلنا الجيران بالترحاب كما تعودنا، وفتحنا بيتنا هذه المرة بإحساس مختلف، فقد عدنا أخيرًا إليه عودة نهائية، حتى وإن كان هناك مخطط آخر بالانفصال عنه لضآلته، ولكنه بيتنا الذي نشعر فيه جميعًا بالأمان برغم الضيق.

الفصل الثالث عشر

اليوم هو الأول لي بكلية التجارة جامعة عين شمس، التي لا تبتعد كثيرًا عن منزلنا، الذي هو نفس منزلنا، فما زال بحث أمي مستمرًّا منذ عودتنا من الخرطوم حتى الآن عن شقة أخرى، فالنقود التي ادخرتها من خلال سنوات عمل أبي بالري المصري بالخرطوم لم تكن كافية كما ظنت، فستُّ سنوات من الغربة لم تَكْفِ لشراء شقة أكبر في نفس الحي الذي كانت تحلم أمي بالسكن به، فلم يكن في حسبانها أن ترتفع أسعار الشقق هذا الارتفاع غير العادي.

فأصبح من الصعب الحصول على شقة أكبر في نفس حينا، حي حدائق القبة، الذي كان ارتباط أمي به كبيرًا، فهي منذ أن جاءت إلى القاهرة عروسًا صعيدية لم تعرف منها غير حدائق القبة بشوارعها الشعبية الضيقة، ثم اكتشفت بعد ذلك شوارع الحدائق الكبيرة المتميزة، التي هي أصل حدائق القبة، وأن شوارعنا الشعبية هي فقط نتاج محاولة الانتماء إلى حدائق القبة، وقد صار السكن في أحد شوارع حدائق القبة حلمًا رئيسيًّا من أحلام أمي.

فهي شوارع قد خطاها من قبل الملك فاروق ملك مصر والسودان، ثم كان لا يمر بها بعد ذلك سوى من سكن بها من عظماء البلد، وكانت مساكنهم عبارة عن فيلات وقصور، إلا أن حلم أمي كان متواضعًا، فلم يصل إلى حد القصور أو الفيلات ولا حتى لشقة في تلك المساكن غير القديمة نسبيًّا التي أنشئت في الستينيات، والتي توجد بشوارع متميزة وإن كانت غير رئيسية، بل لم يَتَخَّط أصلًا فكرة السكن في شقة في إحدى هذه العمائر الحديثة التي بُنيت بعد الزلزال.

فقد كان الزلزال دون عمد سببًا في بداية تغيير معالم حدائق القبة، فقد استطاع الكثيرون من ورثة أصحاب هذه الفيلات والقصور الحصول على قرارات إزالة لها سواء كانت الإزالة واجبة أم لا، وبعضهم قرر البيع بعد عروضٍ مغرية ممن يستطيعون الحصول على هذه القرارات في مقابلٍ مبلغ ضخم يمكن تقسيمه على الوارثين ليرتاحوا من خلافات دامت لسنوات طوال أو لحل أزمات مادية أنهكتهم.

حتى أنا وإخوتي قد تسلل إلينا هذا الحلم فأصبحنا دائمي البحث في الجرائد عن فرصة تناسب إمكاناتنا المادية، ودائمي التلفت أيضًا إذا ما رحنا أو جئنا بالشوارع عن لافتة تعلن بيعًا أو تأجيرًا، فكيف لا أتمنى السكن في تفرعات شارع مصر والسودان الذي هو شارع الملك سابقًا، والذي كان طريقًا للملك يومًا ما من قصر القبة وإليه.

هذه التفرعات التي هي شوارع سكنها الوزراء والمشايخ ومشاهير الفن والباشوات، ومن ذا الذي لا يتمنى أن يكون على

بعد خطوات من قصر القبة بشموخه وعراقته وعتاقته؟ فيكفي شرف جواره.

(كفاية انك تقول انك ساكن قريب من القصر الجمهوري).

أمي كانت تردد دائمًا هذه الجمل حينما تتناقش مع أبي في أمر السكن، فتفتح له بابًا للمرور إلى حلمها، ولم تستيقظ أمي أبدًا لترى الواقع سوى بعد عد نقودها ومدخراتها جيدًا.

ذهبتُ إلى الكلية بمرافقة نادر ماشية على الأقدام خارجة من شوارعنا الشعبية، مارة بشارع علي باشا شعراوي متخطية شارع مصر والسودان، فكان هذا هو طريقي طوال عامين دراسيين سابقين, وحينما صعدت سلم كوبري الجامعة شعرت بأنني بمرحلة أعلى مما سبق كله.

كنت مرتدية ملابسي الجديدة التي اشتريتها بمساعدة أمي، فقد تحررت من قيود الزي الموحد الذي مللته في المراحل الدراسية السابقة، خاصة ذلك اللون البني الذي ارتديته في مدرسة السلام الثانوية لمدة عامين، مما جعلني لا أختار زيًا بنفس اللون الذي صرت أكرهه خاصة أنني أساسًا لا أحب هذا اللون.

كنت واضعة طلاء الشفاه الوردي فاتح اللون لأول مرة في حياتي.

مشيت باعتزاز شاعرة بتألقي في ملابسي الجديدة، إلى أن مررت من بوابة الكلية فتضاءلت بداخلي شاعرة أمام تألق البنات بأني قد مررت من بوابة مبنى التليفزيون، وأن هناك المذيعات

والمذيعين في قمة أناقتهم وإبهارهم للناظرين إليهم، وأن هناك أيضًا العاملين والموظفين، وبرغم اهتمامهم بمظهرهم لكنهم يتضاءلون أمام هؤلاء، إلا أن المكان يجمع الجميع، والجميع متآلفون كلٌ حسب معتقده.

تركني نادر داخل مدرجي، ثم ذهب إلى كلية الحقوق بعد اتفاقه معي على ميعاد للقائه والعودة معًا إلى المنزل.

كان المدرج عالمًا وحده بضخامته واتساعه وذلك الضجيج الذي كان قبل حضور الدكتور، هناك وجه شبه بين المدرج والمطار، إنه يشبهه في أول مرة تواجدت به.. لا أعرف لماذا شعرت بذلك، ولكني فقط شعرت به.. نهاية، فالجامعة كلها عالم مبهر بالنسبة لي.

ما بين خطوات ذاهبة وآتية تَكَوَّنَ من الأيام شهر كامل، بدأت أستوعب خلاله الفروق ما بين الفصل والمدرج بضخامته واتساعه.

وما بين المحاضرة والحصة، وبين الدكتور والمدرس أيضًا، ثم شيئًا فشيئًا بدأت أصبح جزءًا من هذا العالم المبهر، فأحببت الجامعة بلا هيبة، وأحببت دراستي بالكلية، وأحببت قصص الحب التي بدأت منذ الأسبوع الأول بتآلف القلوب ما بين زميلات وزملاء حديثي الوجود في هذا العالم.

جلست بكافتيريا الكلية التي كنت أتفادى الجلوس بها لأن مصروفي لا يكفي للحصول على ما اشتهته نفسي من مأكولات أشم رائحتها رغمًا عني كلما مررت أمامها، ولكن اليوم قد

قررت أن أجلس بالكافتيريا تحقيقًا لما رغبت، غير أنني قد ادخرت شيئًا من النقود يسمح لي بذلك. فطلبت (ساندويتش برجر) وكان عليَّ أن آكله سريعًا قبل مجيء حنان صديقتي التي اكتسبتها من الكلية، حيث إنها دائمًا ما تقول إنها لا تحب الجلوس بالكافتيريا، ولكني أرى أنها لا تنفق كثيرًا فيما هو ليس مفيدًا أو هامًّا بالنسبة لها، وخصوصًا المأكولات والمشروبات، فهي تأتي معها بساندوتش من البيت فتضعه في حقيبة يدها وتأكله حينما تشعر بالجوع، كما تأتي بزجاجة ماء أيضًا بدلًا من أن تشتري.

أتت حنان ولم يأت (الجرسون) بالساندويتش بعد.. أشرت إليها أن تعالي فاقتربت وجلست على الكرسي الذي كنت قد احتجزته لها بالكاد بعد المراقبة الجيدة لكل من يقوم من مكانه حتى سنحت الفرصة للحصول عليه وضمه (للترابيزة) التي حصلت عليها أيضًا بعد صبر كاد أن ينفد، فكان يجلس شخص بمفرده على كرسي واضعًا كوبًا من الشاي أمامه عليها، فانتظرته جالسة على مكان مرتفع أمام الكافتيريا، وبرغم رقابتي لباقي (ترابيزات) الكافتيريا إلا أنني لم أبعد أنظاري كثيرًا عن هذا الجالس حتى تململ في مكانه مستعدًّا لدفع الحساب، فكنت بجانبه ثم أمامه واضعة كتبي على (الترابيزة) غير مبالية بنظراته المتضايقة من هذا التصرف.

وبمجرد ذهابه جلست على الكرسي سعيدة بنتاج صبري وأشرت (للجرسون) في فخر طالبة الساندويتش.

جلست معي (حنان) فقلت لها:

- هتطلبي حاجة؟

نظرت إلى وكأنها تفكر ثم قالت:

- لأ مش عايزة، انتي عارفة انا مبحبش غير أكل البيت.

وهنا جاء الجرسون، فأمسكت بالساندويتش استعدادًا لأكله إلا أنني قد عرضت على حنان أن تأكل معي فرفضت بشدة رغم إلحاحي، فقسمت الساندويتش نصفين غير متساويين إلا أنني أسميهما نصفين، ومددت يدي بالنصف الأصغر قائلة:

- خدي نصه ليكي ونصه ليا.

فابتسمت قائلة:

- خلاص مش هاكسفك.

رغم أني كنت أتمنى أن استمتع بأكله وحدي إلا أنني لم يكن بوسعي إلا أن أتصرف هكذا، قالت:

- إيه اللي خلاكي فكرتي في قعدة الكافتيريا النهارده؟! مش بعادة يعني؟!

فقلت لها

- تغيير.

ثم أكملتُ:

- بس معجبتنيش القعدة قوي، مكاننا اللي بنقعد فيه كل يوم أحسن.

فارتاحت لكلامي قائلة وهي مبتسمة:

- أنا برضو بقول كده.

أكلنا وظللنا جالستين أكبر وقت ممكن تابعنا خلاله ضحكات بعض الجالسين، ولعب بعضهم، وهدوء بعضهم.. تابعنا قصة حب لا نعرف عنها سوى نظرات تتبادل ما بين شاب وفتاه جالسين في هدوء، ترتسم على وجهيهما ابتسامة واحدة.

انتبهت حنان إلى اقتراب ميعاد محاضرة المحاسبة فكان علينا أن نترك الجميع ونذهب.

ذهبنا وأنا أعرف أنني لن أعود، على الأقل قريبًا.

فكم كنت أتمنى أن أبقى أكثر من ذلك في الكافتيريا.

عدنا بعد انتهاء المحاضرة في طريقنا إلى منزلينا أنا وحنان، والذي هو طريق واحد يجمعنا، فمنذ أن تعارفنا ونحن نعود معًا، نتمشى متحدثتين عن يومنا هذا وعن غيره، تلتفت أعيننا أحيانًا إلى ما يعجبنا أثناء مرورنا ببعض المحالٍ في طريقنا فنتوقف لدقائق قليلة نتابع بها الجديد خلف الفتارين، فنشير بأصابعنا إلى ما نتمناه، ثم نتركه ونذهب في طريقنا.

ودعنا بعضنا في مفترق طرق لا يبعد عن بيتنا كثيرًا، وحينما وصلت وجدت الحسين ابن عمي موجودًا.

الحسين توأم الحسن، فهو نسخة طبق الأصل بسمرة وجهه وأنفه الأقرب إلى الكبير وشعره المجعد، لكن يتميز هذا بعينين ضاحكتين وشفتين باسمتين حينما ينظر إليَّ، مما يجعله

يختلف في نظري عن أخيه الحسن.

اقتربت منه فسلمت عليه بشكل عادي، بينما سلَّم عليَّ هو بحرارة قد بدت في عينيه، إلا أن سلامه قد بدا عاديًّا أمام الجميع.

نظراته تحرك شيئًا ما بداخلي، لكنها فقط تحركه حينما أقابله وأتلقى نظراته بعيني مباشرة، أما حينما أستعيدها من الذاكرة في وقت آخر فلا يتحرك بداخلي شيء وإنما فقط أبتسم لا إراديًّا.

قال نادر مبتسمًا:

- إنتي عارفة ده مين؟ حسن ولا حسين؟

رددتُ في ثقة:

- حسين طبعًا.

فما كنت لأخطئ يومًا ولا أتوه ما بين حسين وحسن، إني أعرف الحسين حتى وإن كان له خمسون شبيهًا.

حتى وإن كنا بعيدين عنهما طوال سنوات مرت علينا دون أن نلتقي بالقدر الذي يكفيننا كي نتقارب، فلم يقترب حسين وحسن منا إلا منذ عام واحد تقريبًا، حينما قررا أن يستقرا في القاهرة لإقامة مشروع خاص بهما تاركين وراءهم كل الآراء ما بين مؤيد ومعارض، فقد أعطاهما عمي سليمان مبلغًا من المال لكي يفتحا محل فطائر في منطقتنا، وبالتالي أصبح ترددهما على بيتنا متكررًا خلال هذا العام خاصة وأنهما قد سكنا في شقة مفروشة بنفس شارعنا.

لم يكن لهما الخبرة الكافية بهذه الصنعة، وإنما كان لهما صديق يعمل فطاطري قبل التحاقه بالجيش، والذي كان سببًا في تعرف الحسن عليه، ثم صداقته له، وبعدها اصبح صديقًا لحسين أيضًا، فأقنعهما بإقامة هذا المشروع الذي كان يتمنى أن يكون مشروعه الخاص إلا أن ظروفه المادية لم تكن تسمح بذلك، فقد كان من أسرة بسيطة بالكاد علمته حتى حصل على مؤهل عال، وكان يعمل في محل فطائر ما بين الأعوام الدراسية ليخفف عنها الإنفاق عليه.

استأذنت لأبدل ملابسي، بعد أن أخجلتني ابتسامته حينما أجبت عن سؤال أخي بكل ثقة.

كان حسين بطبيعته خجولًا، فالابتسام في وجهي هو آخر ما يمكنه فعله حينما أكون أمامه، ونظراته المتتالية التي حينما أكون بعيدة إلى حد ما.

مر اليوم سعيدًا، فقد تناولنا وجبة غداء لذيذة قد أعدتها أمي، ثم شربنا الشاي وبعد ذلك أكلنا الفاكهة التي كان قد أحضرها حسين، حتى وإن لم يحضرها، حتى وإن لم يأت حسين أصلًا فكنا سنفعل ذلك. لم يكن ما حدث كله بالجديد على يومياتنا.

ورغم ذلك فقد كان يومًا سعيدًا بالنسبة لي.

إنني أكون سعيدة بوجود حسين معنا.. فردًا ضمن أفراد أسرتنا، ولكني أيضًا أحب عائلتنا كلها، أحب الكلام مغموسًا بتلك اللهجة الصعيدية خاصة إذا كان من حسين الذي يبتسم حينما أبتسم.

***

بدأت في نقل جدول الامتحانات، بينما ألمح نظرات الوداع وأسمع كلماته ما بين الأحبَّة، فأكاد أسمع انقباضات قلوبهم.

هذه الثنائيات التي لاحظت منذ بداية العام الدراسي، ميل فرديٌّ كل منها لبعضهما البعض، ثم تآلف قلبيهما الذي بدا في اقترابهما لبعضهما وتواجدهما الدائم معًا، فتتشابك أصابعهما في كثير من الأحيان غير شاعرين بما حوليهما من عالم ينظر إليهما إما بعيون تسعد لسعادتهما وتفرح لفرحهما، أو بعيون تغار منهما كونها لم تُوفق في الفوز بقصة حب صادقة مثل قصتهما، أما أنا فقد شعرت للحظات بشيء من الوحدة، ثم عدت لاندماجي في نقل الجدول، فأنا التي قد اتخذت قراري منذ اليوم الأول بأن أبقي وحدي، فقد رفضت جميع عروض الزملاء بالاقتراب والتآلف، فقد أحببت دراستي، محاضراتي وكتبي، حتى مدرجات الكلية.

ولكني أيضًا أحببت قصص الحب التي بدأت مع بداية العام الدراسي.

جلست بشارع الضباب بكليتي، ذلك الشارع المعروف بكونه مجلسًا هادئًا للأحبة.. جلست متظاهرة باندماجي في مراجعة محاضرة ما.

أشاهد دمعاتها، ويده الممتدة إلى وجهها لمسح تلك الدمعات.

- هنتقابل بأي طريقه.. أنا هتصرف.

- أنا اتعودت اشوفك كل يوم.. أنت متعرفش يوم الجمعة ده

كان بيعدي علي ازاي، يبقى ازاي هقدر اقعد شهور الاجازة دي كلها من غير ما أشوفك.

- هكلمك في التليفون بنفس الطريقة اللي كنت بتكلم بيها في اجازة نص السنة لاني أنا نفسي مقدرش ما أسمعش صوتك المدة دي كلها.

- بس أماني جارتي اللي كنت بتتصل بيا عندها واللي كانت بتيجي تقول لماما انها محتاجاني أذاكر لها حاجه في المحاسبة لأنها في الدبلوم ومحتاسة ومش فاهمة حاجة، كل يوم بعد ما أبوها ينام، أماني دي مسافرة بلدهم في الصعيد في اجازة الصيف وهتقعد هناك شهر بحاله.. يعني حتى الحل ده بقى مستحيل.

- هافضل أتصل علي تليفونكم لحد ما تردي عليا واسمع صوتك، هأجي أقف تحت بلكونة بيتكم.. هأعمل أي حاجة عشان نبقي قريبين من بعض.. اوعي تقلقي أبدًا.

ابتسمت مطمئنة بينما أكمل كلامه بأن هناك أسبوعين قبل الامتحانات يمكن استغلالهما في اللقاء بأي حجة من وقت لآخر، وأن هناك خمسة وعشرين يومًا هي أيام الامتحانات سيكونان مع بعضهما في كل يوم به امتحان.

غابت دمعاتها وبدت ابتسامتها، ثم مشيا في طريقهما متشابكي الأيدي بعدما لاحظا متابعتي لحوارهما، بينما نظرت أنا في دفتري، وبقيت وحدي.

الفصل الرابع عشر

حينما بدأ العام الدراسي الجديد لاحظت أن كثيرًا من قصص الحب الجميلة التي تابعتها من بعيد طوال العام السابق انتهت بالفشل، بينما استمر بعضها على أمل النهاية السعيدة. وهناك أفراد ممن فشلت تجاربهم عاودوا التجربة مع أفراد آخرين مستمرين في البحث عن الحب الصادق الجميل.

أما حينما اقترب العام الدراسي الحالي من الانتهاء، وبعد ما قمت بنقل جدول الامتحانات، فجلست بشارع الضباب، ولكني جلست هذا العام مجلس الأحبة مع خطيبي (مدحت)، الذي كانت قد تمت خطبتي عليه بإجازة منتصف العام الحالي, لم يكن (مدحت) وسيمًا بالقدر الذي يجعلني أتفاخر بصوري معه، وإنما كان مقبولًا بالنسبة لي، فلم يرَ صور خطوبتنا سوى المقربين جدًّا لي بالكلية، وقد تجاهلت تعليقات بعضهم عن طريقة تسريحه شعره أو لون بدلته الذي لا يجدون به الذوق الراقي، فمدحت كان رجلًا عمليًّا لا يهتم بالمظاهر، وبالرغم من ذلك لم يكن مدحت غنيًّا فقد كان فقط جاهزًا بشقة غرفتين وصالة في حينا الشعبي التابع لحدائق القبة، في نفس شارعنا الضيق، يعمل بالمحاماة بمكتب أحد المحامين بوسط البلد نظرًا

لعدم قدرته المادية علي فتح مكتب خاص به.

يعرفني منذ طفولتي، وأعجبته منذ كنت بمرحلتي الثانوية، فتاه مهذبة منضبطة راقية في سلوكياتها، أختلف عن كثيرًا عن الأخريات بشارعنا كما أخبرني.

أحبني بعد ذلك من بعيد، فكلما كبرت تحول الإعجاب بداخله إلى شيء أقوى، إلى أن تحول إلى حب أكيد تحسه في تصرفاته، فقد كان يفتعل الأسباب كي يراني.. فيقف بشرفة شقتهم التي هي بأول شارعنا كي يراني ذاهبة إلى كليتي صباحًا، ولكنه لم يحاول أن يتحدث إليَّ ذات مرة، فقد دخل البيت من بابه متقدمًا لخطبتي بشكل رسمي. يعمل والده محاسبًا بإحدى شركات القطاع العام، أما بالنسبة لي فهو (عم سعيد) جارنا في الشارع، وصديق والدي برغم عدم تبادلهما الزيارات بشكل متقارب، كما أنه من القلة الحاصلين علي مؤهلات عليا بشارعنا، فكان عَلَمًا من أعلام الشارع مثله مثل أبي، ورغم أن (مدحت) قد ولد ونشأ في القاهرة إلا أنه يتميز بكونه صعيدي الأصل، وكانت هذه ميزة تضاف إلى أخلاقه الحسنة وخجله وأدبه المعروف به فير الشارع، وإلى كونه ابن (عم سعيد) صديق أبي الذي نعرفه ويعرفنا منذ زمن بعيد، أي منذ جاء أبي ليسكن بهذا الشارع.

وبمنطق أبي، وعلى الرغم من عدم اكتمال سعادة أمي، حيث إن مدحت كان رابطًا جديدًا سيربطنا بهذا الشارع الذي صرنا علي وشك الفرار منه، أن (اللي نعرفه أحسن من اللي منعرفوش، وأن مدحت متربي قدامنا، وتحت عنينا)، جاءت موافقتي تابعة لموافقتهما. موافقة أبي لجميع ما ميز مدحت،

وموافقة أمي لكونه عمليًا وطموحًا ويضع القرش على القرش من أجل شراء شقة بحي آخر أفضل من هذا الذي نسكن كلنا في باطنه، وسيساعده أبوه كما وعده بجزء من مكافأة نهاية الخدمة، التي سيحصل عليها بعد أقل من عامين، وزادها اطمئنانًا أن هذه الشقة التي سنتزوج بها ليست ملكه وإنما هي لأخيه الأكبر، الذي لم يرتبط بعد، بمعني أنه سيحتاجها يومًا ما وسنضطر نحن لتركها آجلًا أو عاجلًا، وبالتالي فلن يلهو لي ولدٌ مع أبناء الجيران في الشارع من متوسطي المؤهلات أو عديميها، فمعظمهم لا يتعدى طموحهم أكثر من حصول أبنائهم علي مؤهلات متوسطة أو فوق المتوسطة، راضين بهذه الحياة البسيطة، متكيفين مع ضيق بيوتهم التي لا تتمنى لي أمي أبدًا العناء جراء البقاء بأحدها كما عانت هي ولا تزال تعاني.

جلست مع (مدحت) في دقائق صامتة، أنظر إلى عينيه وينظر إلى عيني رجل يحميني، هو دائم النظر إلى عيني كلما جلسنا معًا.. إنه يريد أن ينظر إلى داخلي من خلال عيني، يريد أن يسكنه فيستقر به.. إنه يحبني بقدر كبير طالما تمنيته، ويتمنى أن أحبه بنفس القدر.

أما أنا فقد كنت أنظر إلى عينيه سائلةً نفسي برغم المتعة التي أشعر بها: لماذا لم أنتظر إلى ما بعد إتمام دراستي كي ارتبط بخطبة وزواج؟ أم أنني فقط كنت أريد أن أجلس هذا المجلس مع شخص يحبني دون الخوض في تجارب عاطفية إما ناجحة أو فاشلة؟

فأنا التي طلبت منه أن نلتقي هنا في هذا المكان، وفي هذا

الوقت من العام الدراسي، فهذه أول مرة يأتي إلى هنا بكليتي يجلس أمامي كالطفل الصغير الذي ينتظر رضاء أمه بعد خطأٍ قد ارتكبه، ينتظر أن أحنو عليه بكلمه، أو كزهرة الْتَوَى عودُهاَ في انتظار قطره من ماء زارعها. ابتسمت لأجله ناظرة إلى من حولي فوجدتني أشبههم، فلم يكن هناك فرد يجلس وحده، فلا مكان هنا بشارع الضباب سوى للثنائيات فقط، ابتسم هو الآخر سعيدًا بابتسامتي التي كان يستحقها، فقد حرك بداخلي شيئًا لا أعرف اسمه ولا أريد، فأنا فقط سعيدة بما أنا به, أو بما هو بي. أمسك بيدي مقبلًا إياها فتركتها بين يديه.. قد حنوت عليه فطار فرحًا، سقيته الماء الذي تعطش إليه كثيرًا، فاشتد عوده وانتصب واقفًا يناديني أن أسكن حضنه، فسكنت للحظات سألت فيها نفسي وأنا المفعول به هل كان ذلك سيحدث إن كان الفاعل هو الحسين؟!

هل كنت سأتركه ليفعل بي ذلك هو أيضًا؟ كان ينظر إلى عيني، كنت أرى نظراته حتى وإن كانت متخفية تأتيني دون أن يدركها غيري.. أنا وحدي التي أدركها.

لم يتقدم الحسين لخطبتي.. بل لم يصرح لي بما في داخله أساسًا.. لكنه لم يعد يأتي إلى بيتنا منذ أن دعاه أبي لحضور حفل خطبتي.. ذهب وأخذ معه صورة كانت لي ببرواز صغير في صالون بيتنا.. أخذها أيضًا دون أن يدرك أحد ذلك.

لا أعرف إن كنت سأوافق لو كان قد تقدم لي الحسين وأقنعني والدي بذلك أيضًا أم لا؟.. فمدحت لم يحرك أكثر مما حرك الحسين بداخلي، ولكنه لم يتقدم لي، علَّه ظن أنني لن

أرتبط بخطبة قبل إتمام دراستي تمامًا كما ظننت أنا.

ترك الحسين عمله، وسكنه، بل ترك القاهرة كلها وعاد إلى بلده لا يبرح بيته.. لا يعرف من حوله ما الذي أصابه.. يقرءون عليه القرآن، ويذهبون به إلى الأطباء، فقد صار صمته أعلي من صوته، وهو مستسلم لما يفعلون تاركهم ذاهبًا إلى داخله ساكنًا به.. صار الحسين أمام عيني فابتعدت خارجةً من حضن مدحت ثم ابتسمت له رغم كل شيء.

(بحبك) قالها حينما أمسك بيدي كي نبدأ في المشي ذهابًا وإيابًا في هذا الشارع الذي اشتهر بهدوء لا يتخلله سوى تنهدات الأحبة وبعض عباراتهم منخفضة الصوت.

- نفسي الشهرين دول يعدوا بسرعة علشان يجمعنا بيت واحد, أنا مش قادر أعيش من غيرك أكتر من كده.

- ما أنت معايا أهو.

- مش كفاية.. أنا حاسس إنك واحشاني قد السنين اللي حبيتك فيها.. قد الليالي اللي فكرت فيكي فيها.. قد كل لحظة عشتها من عمري.

- وأنا كمان بحبك أوى, وأتمنى يجمعنا بيت واحد, برغم إني خايفة من المسئولية.. يعنى مسئولية البيت مع الدراسة.. أعتقد ده هيكون صعب قوى, بس انت اللي مستعجل وكمان بابا مش بيحب فترة الخطوبة تكون طويلة.

- يعنى مفيش مفر, وبعدين بالنسبه للمسئولية, والبيت متحمليش هم ومتنسيش أن أمي ساكنة في الشقة اللي تحتنا،

يعنى أكيد هتساعدك في حاجات كتير وتقدري تعتمدي عليها خصوصًا في أيام الامتحانات، فما تخافيش طول ما أنا معاكي.. ومتحمليش هم حاجة أبدًا.

رضيت بكل ما قال مبديةً ذلك من خلال صمت وابتسامة ونظرة إلى عينيه.

ذهبنا بعد ذلك فجلسنا في كافتيريا الكلية، فأكلنا وشربنا ثم عدنا معًا فقط حتى أول شارعنا، وبعدها دخلت أنا الشارع وحدي، وانتظر هو قليلًا ثم دخل الشارع بعدي حتى لا يرانا أحد معًا فيخبر أبي الذي لا يرضى بخروجي معه، نظرًا لأن هذه هي عاداتنا، فخواتم الخطبة ليست كافية لأن ننفرد ببعضنا البعض بأي حال من الأحوال.

الفصل الخامس عشر

انطلقت السيارات أولها السيارة المزينة التي أجلس بداخلها بفستاني الأبيض وطرحتي الجميلة وإلى جواري مدحت.. انطلقت تجوب شوارع حدائق القبة الرئيسية، وانطلقت الزغاريد من دواخلها لتلقي بقلبي المزيد من الفرحة، والمزيد من الحب لمدحت، ففي هدوء ما بعد منتصف الليل بساعات لم أنتبه إلى حصرها، وحينما مررنا بشارع مصر والسودان شعرت بأنني الملكة وإلى جوار الملك أجلس, نعم فمصر والسودان شارع الملك، هكذا كان يطلق عليه من قبل، فقد كان يمر الملك بموكبه وإلى جواره الملكة بهذا الطريق ذاهبًا أو عائدًا إلى مملكته.

وهكذا أنا الليلة عائدة إلى مملكتي وإلى جواري زوجي.. مما أسعدني أيضًا أن السيارة مكتوب علي جميع جوانبها بأوراق الزينة الملونة "HALA"، هكذا أراد مدحت فلم يُرِدْ كتابه اسمه ولا حتى أول حرف منه بجانب اسمي كالمعتاد في زينة سيارات الأفراح. قد أحبني مدحت كما تمنيت أن أُحَبَّ، أخذني من عالمي السعيد إمساك منال ليدي بشده وازدياد بكائها الذي لم تكف عنه منذ خروجنا من قاعه الفرح.. آلمني كثيرًا بكاؤها.

منال حبيبتي، أختي الصغرى التي لا أشعر أبدًا بأنها كبرت.. كيف ستعيش بعد ذهابي؟..كيف ستستمر أيامها دون وجودي؟!

لماذا لا تكتمل سعادة أبدًا؟

تركنا مصر والسودان، ثم تركنا من بعده شارع علي شعراوي باشا، ثم تركنا ما بعده لما بعده حتى أصبحنا بأول شارعنا أمام بيت مدحت.. نزلت من السيارة ترمقني عيون كانت بانتظاري لتتفحصني بثوب الفرح، فهذه هي عاده أهل حينا مع كل عروس جديدة، بل ومع أي حدث جديد يطرأ على حياة أي ساكن به، فمعظم الشرفات كانت قد فتحت فور وصولنا علي صوت كلاكسات السيارات وحتى قبل نزولي من السيارة.

لم أستطع أن أصعد بجانب زوجي، فالسلم ضيق لا يحتمل صعودنا متجاورين، ولكننا وصلنا في النهاية.

فتح لي مدحت باب شقتنا، ثم حملني فأنزلني داخلها لأخطو أولى خطوات حياتي بهذا المنزل، ثم ودعت أهلي وجيراني الذين تبعوني.

منال، التي مسحت لها دموعها واحتضنتها مطمئنة إياها، ثم وعدتها بأنني لن يبَعدني عنها شيء، أي شيء.. أمي التي بكت قائلةً إنها غير متصورة أن تستيقظ غدًا فلا تجدني في فراشي.. بعض جاراتي اللاتي أخذن يزغردن ويصفقن ثم أخذن يقرصنني في ركبتي ضاحكات سعيدات بزواجي.. حنان صديقتي التي ابتعدت عنها منذ ارتباطي بمدحت، ولكنها رغم ذلك كانت من المدعوين الليلة.. أوصت أمي زوجي عليَّ مرارًا فقبَّل يدها قائلًا: (هالة في عنيا) ما تخافيش يا ماما.

تركوني جميعًا علي أمل لقائي غدًا مع من جاء من الصعيد من أعمامي وعماتي وخالي وبعض أبناء وبنات عماتي، الذين جاءوا من أجل عرسي.. من أجلي أنا.. كلهم جاءوا من أجلي، فأنا الليلة ملكة.

تذكرت الحسين لحظه إغلاقي باب شقتي، ومن فوق يدي يد مدحت متعجلًا إغلاقه, لم يأت الحسين مع أنه من المدعوين، وأظنه لن يأتي أبدًا. التفتُّ متناسية إياه لأرى مملكتي الصغيرة في كامل لياقتها استعدادًا لاستقبالي، فكل شيء جميل كما أريد.

كل قطعة أثاث أنا التي أشرفت علي وضعها في مكانها، بل أنا التي اخترت لها مكانها حتى وإن كان الاختيار محدودًا وفي مساحه لا تسمح بتعدد الاختيارات، وأجمل ما في المكان هو رائحة الورد التي حرصت علي إحضارها طبيعية، فأنا أحب الورد البلدي الأحمر، ولم يقصر في ذلك مدحت فقد نفذ ما أمرت به فأنا الملكة.

وبدأت حياتي معه بإحضاره لي وردة من وسط الباقة. شممتها مستمتعة برائحتها، أملًا في حياة قادمة وردية.

الفصل السادس عشر

بمرور ثلاثة شهور على زواجي، كانت هناك أمور كثيرة قد تغيرت فتغيرتُ معها.. فقد رحلت أسرتي إلى مكان آخر تاركة حدائق القبة بأحداثها وذكرياتها، فتركتني وقد أصبحت جزءًا من كل حدائق القبة، فصرت بأسرتي الصغيرة، وبيتي الضيق كالنتوء في الجسد، فلا هو جزء متجانس معه، ولا هو قادر على الانفصال عنه، لم تكن أمي بكامل سعادتها حينما ذهبت.

فالشقة الجديدة ثلاث غرف وصالة يسمونها (رسيبشن) أعتقد لأنها صالة كبيرة يمكنها أن تحتمل صالونًا وسفرة وأنتريه، كما أن الغرف الثلاث تتميز بالاتساع بعكس الغرف في شقتنا، ومطبخها ضعف مطبخنا القديم، وكذلك الحمام أيضًا, أما العقار فهو عبارة عن برج يتكون من أحد عشر طابقًا، وكل طابق يجمع ما بين شقتين، وتسكن أسرتي في الطابق السادس، يصعدون إليه بمصعد كهربائي، وما هو جدير بالذكر أن للعقار حارسًا، كل هذا كان تغيرًا إيجابيًا تمنته أمي بعد رحلة بحث مرهقة لسنوات.

كان مالك الشقة السابق صديقًا لصديق أبي في العمل، وقد

شطبها وسكنها هو وأسرته لمده عام واحد فقط وبعد ذلك عرضها للبيع لأسباب لم يتحرَّ عنها أبي بجدية، لكنه علم عند كتابه العقد من البائع نفس السبب الذي طمأن قلبه إلى أن الشقة أو العقار ليس بهما ما يعيبهما، ولكنه فقط لم يستطيع التكيف مع هذا المكان نظرًا لبعده عن مكان عمله، وكان يظن من قبل أنه قادر علي تخطي هذه العقبة والتكيف مع الوضع الجديد.

أما أبي فقد كان كل ما يهمه هو أن الشقة تعد لقطة بهده المواصفات وهذا السعر الهين، علمًا بأنها كاملة التشطيب، فلن يرهق مع (الصنايعية) وما عليه إلا نقل الأثاث وزيادته على مهل بعد السكن، وبناء على ذلك انتقلت أسرتي بكامل أفرادها إلى الشقة الجديدة.

كلهم كانوا سعداء، إلا أن هناك شيئًا في القلوب يسكن منذ رحيلهم، خاصة بداخل قلب أمي، فشارع الملك فيصل لا يشبه مطلقًا شارع ملك مصر والسودان، فشكله مختلف تشعر أمي بأنه غريب عنها أو أنها غريبة عنه، لا تشم بهوائه الذي تنزل بين الحين والآخر لتشمه رائحة السابقين من العظماء، ولا تتخيل على أرضه أقدام أحد منهم, حتى تفريعاته التي تسكن هي الآن في باطن إحداها لا تشبه تفريعات شارع مصر والسودان.

صحيح أن الشارع أوسع بكثير من ذلك الشارع الذي سكنته لسنوات طوال سابقات، لكن الأبراج عالية جدًّا تُشعر أمي حينما تقف في هذا الشارع بأنها محاصرة.. تشعر بالضيق.

حينما تكون وحدها بالشقة بينما يكون أبي في عمله ومنال ونادر بالجامعة، فهي تشعر بالوحدة، فلا جيران تعرفهم ولا

يعرفونها، ولا أصدقاء في المنطقة، ولا أي شيء يشعرها بشيء سوى الوحدة.

الضيق، والوحدة قادران علي وأد فرحة أمي بتحقيق الحلم الأكبر في حياتها.

رحل أيضًا والد زوجي إلى عالم آخر استقرت به إقامته، فقد مات وتركنا جميعًا أنا ومدحت.. زوجته وابنتيه نجوى وسلوى وابنه الأكبر (أيمن).

تأقلم (أيمن) بعد فترة على غياب صوت أبيه وأنفاسه، فهو بالأساس لم يكن يحب البقاء بالمنزل كثيرًا، فبعد عودته من عمله كمحاسب في نفس الشركة التي كان يعمل بها والده يعود للمنزل لتناول الغداء ثم الراحة قليلًا، ثم الغوص في بحور عوالمه التي لا نعرف عنها شيئًا أكثر مما يخبرنا به، فهو يحب التنزه والترفيه عن نفسه دائمًا مع أصدقائه علي الأغلب، ولم يتغير ذلك تحت أي ظرف.

أما نجوى وسلوى فكلما حاولتا التقرب مني بمجيئهما إليَّ أو حاولت أنا ذلك بأن دعوتها عندي بالشقة، ادَّعت أمهما المرض والشعور بالوحدة إثر موت زوجها، وتبدأ في البكاء واستدعائهما كي تبقيا بجانبها، مع أنهما تقاربانني في العمر، فنجوى قد أنهت دراستها الجامعية منذ عام واحد، أما سلوى فهي في عامها الثالث بالجامعة مثلي تمامًا.

حزن مدحت لفراق أبيه الذي كان هو أقرب أبنائه إليه.. تمنى أن يترك هذا البيت، فهو لا يحتمل بقاءه به دون وجود أبيه،

فصوت أبيه كان ركنًا من أركان هذا البيت، تمامًا كصوت أمه، فقد أصبح البيت بالنسبة له آيلًا للسقوط بعد فقدانه.

أما أنا فقد كنت أعرف جيدًا إنه قد أصبح واجبًا على مدحت وعليَّ الآن أن نواجه حقيقة أن أباه قد مات.. مات ودفن، وأنه ليس بمقدورنا الابتعاد حتى وإن كان لا يستطيع التكيف مع البيت بدونه، فأنفاس والده التي كانت تمده بالحياة قد توقفت، وعليه أن يحيا دونها حتى وإن شعر بالضيق أو الاختناق.

رحل (عم سعيد) ورحل معه حلمنا بالانتقال من هذا المسكن أو حتى البقاء فيه، فهو ليس لنا.. عنَّفني حُلمي قبل أن يرحل.. ولكن ليس بوسعنا فعل أي شيء، فقد قررت حماتي الاحتفاظ بالمبلغ الذي سنحصل عليه من التركة كي تضعه في البنك كرصيد احتياطي لزواج نجوى وسلوى، دون توضيح لما سيحدث غير ذلك، وعلى الجميع الموافقة على هذا القرار، وإلا ستغضب الأم أو تمرض، وكلاهما صعب علي قلب زوجي.

وجدتني أنظر إلى مملكتي من مجلسي فأمرُّ بنظرتي علي الشقة كاملةً بغرفتيها وطرقتها المؤدية إلى الحمام والمطبخ، والتي تتكشف لي كاملها من مجلسي هذا، فأكاد أختنق.. أشعر بضيق يزداد كلما ازدادت أيامي بهذا المكان، ضيق قد يرد شعوري بالرضاء الذي كان يميزني من قبل، يخنقني أيضًا ردائي الأسود الذي صرت اسكنه منذ وفاة (عم سعيد)، ألح على ذهني سؤال لم أستطع الإجابة عنه: هل أخذل أحلامي من أجل الرضاء، أم أتركني أحلم فأتخلَّى عن رضائي؟

شعرت في هذه اللحظة بغثيان، فلم ألبث أن وقفت كي أذهب

إلى الحمام لأتقيأ، حتى وجدتني في منتصف الشقة أدور وهي من حوالي، أو تدور وأنا في منتصفها محاصرة.

أغمضت عيني، ثم فتحتها فوجدتني علي سريري، ومن حولي زوجي وإخوته وأمه.. سكنت للحظات في محاوله لتذكر سبب التقافهم حولي، ثم استوعبت تدريجيًا أنني لم أكن أصلًا في سريري، نعم.. إنني كنت بالصالة ثم شعرت بدوار.. الآن فهمت ولكن عليَّ أن أفيق جيدًا لأرى الواقع الذي حولي.. اعتدلت فجلست في مكاني بينما وضع مدحت الوسادة وراء ظهري كي أستريح مما أثار استنكار حماتي. فأتاني صوتها غاضبًا: (ياختي قومي وبلاش دلع، إحنا فينا اللي مكفينا!).

ثم ذهبت بينما تناثرت منها كلمات قد ألقتْها بصوت غير مرتفع، فما سمعت منها إلا (استهبال، كهن حريم، إحنا ناقصين, ركبت ودلدلت, نحس).. لم يصدمني كثيرًا ما سمعت، فحماتي قد تغيرت منذ أصبحت زوجة لابنها ولا أعرف السبب، رغم أنني كنت دائمًا ما أرى الحب لي في عينيها قبل الزواج وحتى قبل الخطبة وازداد ذلك التغير وصار واضحًا بعد موت (عم سعيد) فهي تنظر إليَّ وكأنني أنا السبب في وفاته.. تعاملني بقسوة حتى إنها ذات مره قالت لي: (وشك وحش علينا). قمت من سريري لأطمئن مدحت، لاحظ مدحت والجميع أنني أصبحت بخير مفتعلةً عدم سماعي لما ألقته حماتي من فمها (حمدًا لله على السلامة) قالتها نجوى.

(لو احتجتي حاجة اندهي عليا) قالتها سلوى، أما أيمن فقد ربت علي كتفي قائلًا: (متزعليش من ماما هي بقت عصبية قوي

بعد موت بابا)، ثم ذهب الجميع وبقيت أنا ومدحت.

أخذني بين ذراعيه محتضنًا إياي بدفء كنت أحتاجه، فبكيت بحرارة حتى شعرت بالطمأنينة في حضنه، فهو يحبني بقدر كبير.

الفصل السابع عشر

وفي ذات يوم بنهاية العام الدراسي الثالث لي، وبعد أن نقلت جدول الامتحانات وجدتني أذهب لأجلس مجلس الأحبة مع حبيبي، كان قريبًا مني أتحدث إليه فيصغي إليَّ ثم يرد عليَّ بركله من قدمه شديدة الصغر أو يده ضعيفة القُوَى أحسها حينما أمرر يدي علي بطني الكبير، وحينها يخفق قلبي إثر ذلك.

فقد اعتدت أن أحدثه عما يؤلمني فيسمعني دون ملل. وقفت عائدة إلى منزلي بعدما انتهينا من حديثنا منهكةً، أحمل بين يدي كتبي وبداخلي حلمي الجديد.

أعد الأيام كي تنتهي سنوات دراستي، فالدراسة مع الأعباء المنزلية والواجبات الزوجية تعد حملًا ثقيلًا، أو أن الأعباء المنزلية وواجباتي الزوجية هي التي جعلتني أشعر بأن دراستي ثقل أتمنى إنزاله من فوق كتفي.

ونهاية وصلت إلى بيتي، أنزلت كتبي فوضعتها فوق السفرة.. خرج زوجي من غرفه النوم فقبلني في جبيني كالعادة، ولكن من غير العادة أن أشعر بما شعرت حينما نظرت إلى عينيه، فقد بدا شارد الذهن تجتمع في عينيه تعبيرات حزينة، سألته بقلق:

- مالك يا مدحت؟

- مفيش حاجة.

- لأ في متخبيش عليا.

- أنا سبت المكتب اللي بشتغل فيه.

- ليه؟

- اختلفت مع صاحب المكتب.

- يعني إيه؟

- يعني مفيش شغل.

قالها بصوت مرتفع وكأنه سجين قد فر من زنزانته.

- وإيه يعني، ولا يهمك...

قلتها بابتسامة مدعيةً صمودي أمام هذه الكارثة.

- مفيش شغل يعني مفيش فلوس يعني مفيش أكل ولا شرب، يعني مفيش مصاريف مستشفى، يعني مش هنعرف نعيش!

- متقلقش.. ربك هيفرجها بس انت قول يا رب.

- يااااارب.

سكت لدقائق قليلة ثم قال:

- أنا لازم أتصل بطارق.. لازم يساعدني.

- طارق البنهاوي؟!

- أيوه.

- بس ده في الكويت، هيقدر يعملك إيه؟

- هو كان وعدني انه هيدورلي على شغل هناك.

- هناك.

- فين؟!

قلتها باستنكار ممزوج بالقلق والخوف من القادم.

- في الكويت.

- أنت بتقول إيه؟! هو يإما المكتب دة يإما بلاش؟ ما تدوّر علي شغل في مكان تاني.

- فين؟!

- في أي مكتب غير ده.

- آه وأفضل طول عمري تحت أمر الأستاذ.. مرمطون يعني، روح الشهر العقاري، حاضر.. اصحى بدري عشان تحضر الجلسة، حاضر.. روح هات الورق ودي الورق، حاضر حاااااضر!!

- مش لازم مكتب دور في أي حتة تاني.. بلدنا فيها شغل كتير مهما كان نوع الشغل هيكون أهون من الغربة.. الغربة صعبة قوي يا مدحت.

- بلدنا ما فيهاش أي حاجه م اللي احنا محتاجينها.

أفلتت من عيني دموعي، ثم جريت فاحتضنته قائلة:

- هتسيبني لوحدي!

- إنتي مش لوحدك (مشيرًا إلى بطني).

- يمكن ميعرفش يلاقيلك شغل.

- لا هو لقالي شغل فعلًا.

ابتعدت عنه غاضبة مصدومة:

- آاااه قول كده بقى! قول إن انت مرتب كل حاجة عشان تبعد!

ضمنى إلى صدره.

- أنا بعمل كل ده علشانك.. عايز أحققلك أحلامك، عايزك تعيشي زي ما كان نفسك تعيشي.. عايز ابننا لما يكبر يعيش مرتاح.

- بس أنا مش عايزة أعيش بعيد عنك.. مش عايزة أعيش لوحدي.

***

انقضى النهار سريعًا ثم خلفه الليل.. ذهبت إلى شرفتي لأقضى ما بقي من ليل وحدي، حيث ذهب مدحت ليقضي السهرة مع أصدقائه كعادته ليلة الجمعة من كل أسبوع.

جلست وكأنني أتدرب على الوحدة، فالشرفة أصلًا لا يمكنها إلا أن تحوى كرسيًّا واحدًا فقط، جلست غير مضيئة نور الشرفة، أرى النوافذ والشرفات مغلقة معظمها، فالليالي لا زالت تأتي بشيء من البرودة.

أسمع همسات الأزواج، وبكاء بعض الرضع الباحثين عن صدور أمهاتهم أو المتأرقين بسبب بلل أو غيره.. وقعت عيناي علي مصطفى الساكن بالمنزل المقابل لمنزلنا.

العريس الذي كان قد تزوج منذ شهرين من ابنه عمة، والتي سمعت مرارًا صراخها في وجهه بقولها: أنا مبحبكش، رأيته واقفًا يدخن سيجارته في شرفته فيزيح دخان سيجارته نسمة هواء الليلة الباردة فتدفعه إلى النافذة المجاورة لشرفته نافذة غرفه نوم أحلام، الأرملة الصغيرة ذات السبعة والثلاثين عامًا، والتي دائمًا ما ترتدي الملابس السوداء منذ وفاة زوجها منذ سبع سنوات، دائمًا ما تغلق أحلام نافذتها مبكرًا حيث إنها تستيقظ مبكرًا لتذهب إلى عملها كمدرسة ومعها طفلتاها ثم تعود لتعتني بهما ما بقي من اليوم حتى تناما ثم تتأكد من أحكام إغلاق نافذة غرفة نومها لتنام منهكة مستعدة لاستقبال يوم آخر لا يقل مشقة عما سبقه. نفذ دخان سيجارة مصطفى إلى غرفة أحلام عبر نافذتها التي يبدو أنها نسيت أن تتأكد من إحكام إغلاقها الليلة، أو فَتَحَتها قليلًا بعد ما ذهب معظم الليل، لا

أدري. ولكنني قد صدمني ما رأيت، فأحلام الليلة لا ترتدي رداءً أسود بل ترتدي رداء نوم أحمر، وتضع المساحيق على وجهها.. تسدل شعرها الأسود على ظهرها.. تتحزم بطرحتها السوداء التي كانت ترتديها صباحًا حينما رأيتها، وأخذت ترقص على أنغام ألحان بداخلها.. رقصت كثيرًا حتى تعبت، فارتمت باكية على سريرها.

أغلقت شرفتي ثم جريت إلى الداخل، حاولت محو الصورة التي رأيتها لأحلام بمشاهدة التليفزيون ولكن بلا جدوى.. تمنيت لو لم أرها الليلة، لو ظلت صورتها في ذهني هي نفس الصورة التي رأيتها بها صباحًا بملابسها السوداء وحجابها الكبير، وفي يديها طفلتاها.

الفصل الثامن عشر

وبعد مضي خمسة أعوام أخرى لم أعد فقط أنتظر خطابات رشا لأرسل لها بخطاباتي ردًا عليها، وإنما أصبحت أنتظر أيضًا خطابات مدحت ومحادثاته التليفونية.

بدأت في قراءة خطاب مدحت الأخير لي في هذه الليلة الباردة للمرة الثالثة، وبجانبي على الكومودينو كوب الشاي الساخن مختبئة تحت البطانية، وبجانبي على السرير ابني وابنتي سعيد وحنين اللذان يدفئاني بأنفاسهما، ننام ثلاثتنا في سرير واحد.

سعيد هو ابني الأكبر الذي لم أتمكن حتى من اختيار اسمه، فقد كان واجبًا علينا أن نطلق عليه هذا الاسم، خاصة بعد موت جده قبل ولادته بشهور قليلة، أما حنين فقد اخترنا اسمها معًا عبر مكالمة تليفونية، فهو لا يمكنه أن يتواجد معنا إلا شهرًا واحدًا من كل عام.

تركت كوب الشاي الذي كان قد برد واحتضنت أولادي وأغمضت عيني على دموعي الدافئة، في محاولة مني للتغلب على إحساسي بالضيق الذي يزداد حينما أكون وحدي.

فعليَّ أن أختبئ ليلًا في حضن أولادي، ونهارًا في ثوبي الفضفاض وحجابي الكبير حينما أذهب إلى عملي، إلى أن يعود إليَّ زوجي بعد شهور طويلة لنعد نقودنا لنجدها غير كافية حتى لأن اطلب منه البقاء معنا، فسيبقى مغتربًا إلى أن نصل إلى الحد المطلوب, ثم بعدها تبدأ رحلة البحث عن كل شيء.. عن السكن.. عن الألفة.. عن الاستقرار.. عن كل شيء فقدناه خلال بحثنا عن أحلامنا كي نبدأ تحقيقها إن أمكننا ذلك.

إذن فلم يكن خطابه هو سبب بكائي، ولم تكن هذه هي الليلة الوحيدة التي أبكى فيها, بل لم أعد أستاء حينما أتذكر مشهد أحلام الراقص في غرفتها، فقد صرت أفعل مثلها حينما أتمرد على كل ما يصيبني بالضيق.

تمت

بحمد الله



مرت شهور ثقيلة على قلبي، فرغم أن كل شيء مريح هنا، إلا أنني أشعر بالاحتياج لأشياء لا أعرف مسماها (كنهها)، كما أن هناك شيء يشعرني بالضيق.. شيء يتسلل إلى قلبي ونفسي ببطء، فأنفعل أحيانا بدون سبب، وأبكي أحيانا أخرى لا أدري لمَّ؟

أشعر بشوق لـ"ماما نجوى" -وكأنها أمي- و"بقلظ" -وكأنه صديقي- أريد العودة إلى بيتنا، بيتنا هناك في بلدنا، في مصر.

هناك شيء لا أطيقه.

هبه البدهلي ●●

من مواليد القاهرة، تعود أصولها إلى قرية الأكراد بمحافظة أسيوط، لكنها عاشت فترة من طفولتها وشبابها بالسودان، تخرجت في كلية الحقوق جامعة القاهرة، وفازت بمسابقة في القصة القصيرة بالجامعة؛ نشرت مجموعة قصصية باسم "للموت معان أخرى، كما نشرت لها قصصا ومقالات في صحف ومجلات مختلفة، و"الضيق" هي روايتها الأولى.

ign by: Alaa Elnewehy



